قراءة في حياة الرب يسوع

الجزء الثاني

الراهب سارافيم البرموسي

نسخة إلكترونيّة

نسيت أرض آبائي في اندفاعي، أيّها الكلمة، نحو نعمتك!
نسيت أجواق عذارَى عُمري
لا أمّي ولا الذُّريّة التي وُلِدتُ منها
لم يَعُد لهما ما يُشْبِع فـيَّ أي كبرياءٍ؛
أنت وحدك أيّها المسيح هو كلّ شيءٍ في نظري

نشيد الفضيلة . ميتوديوس الأولمبي

الإنجيل حركة

قراءة في حياة الربّ يسوع هي قراءة معاصرة لكلمات وحياة المسيح ومواقفه التي دوّنها لنا الإنجيليّون. ليست شرحًا وتفسيرًا مُنظّمًا متتابعًا، أكثر من كونها لحظات سكونٍ وتأمُّل واعٍ واقعيٍّ لدفقة الوصيّة في وعائِنا المعاصر. فالكثير من كلمات وأفعال المسيح تستوقفك وتمسك بك ولا تريد أن تُطْلِقك حتى تُجدِّد رؤيتك وإنسانيّتك، ويَلْمس هذا التجديد واقعك الشخصي ومدارك المجتمعي. قد تجد بها نُتفًا من المعارف الإنسانيّة التي تتواءم مع روح الإنجيل، وهو دليل على أنّ الثقافة الإنسانيّة ليست مُتغرّبة بالكُلّيّة عن واقع الإنجيل بل تصبح في العديد من الأحيان شاهدةً له، من خلال خبرات البشر في حياتهم عبر الأزمان والأصقاع؛ فالبشر على صورة الله ولو لم يُدْرِكوا.

نُصلّي في ليتورجيّة العِماد فنقول:

أيّها الأزليُّ السيّد الربّ الإله
الذي جبل الإنسان كصورته ومثاله ...
افتح أعين قلوبهم [المُعمَّدين الجُدُد]
ليستضيئوا بضياء إنجيل ملكوتك

إنّ كلَّ كلمةٍ من كلمات الإنجيل تُخلِّق نوعًا من التحدّي للذّات الإنسانيّة المتقوقعة حول وجودها الذّاتي، تريد أن تُطْلِقها لترى الوجود الكُلّيّ، متجاوزةً أُطُر الزمان والمكان والتقاليد والبيئة والطباع والمعارف ... ويبقَى التحدّي قائمًا في حياتنا حتى تنتصر الكلمة، كما ينتصر النور على الظلمة، بالفجر والشروق، فتُكسِّر كلّ قناعات النفس القديمة المأخوذة من المُسلَّمات الإنسانيّة المُجْتمعيّة، والتي ننقلها بعضنا لبعضٍ ونحن في غيبوبة النسبيّة، ومتغرّبين عن كلّ ما هو مُطْلَق، فتُحيل كلمات الإنجيل، عالم الإنسان التُرابي إلى ترابٍ، أي تعود به إلى أصله غير المكتمل قبل نَسَمَة الحياة. وقتها يبدأ الحراك الأبدي في الظهور على سطح الكينونة الإنسانيّة، ويبدأ تجاوز الذّات والحاضر إلى المُطْلَق. وحالما يلمس النسبي، أي الإنسان، المُطْلَق الإلهي، ينال المعنَى الذي طالما بحث عنه. يراه نابضًا في قلبه وعقله وجوهره الإنساني. إنّها الحياة الإلهيّة والتي تمرّ كنبضاتٍ إلى كينونة النفس، فتُحييها. فلا يبقَى الإنجيل كتابًا يُعبِّر عن هويّة دينيّة، بل كتاب الحياة والحركة والوجود، الذي يدفع الإنسان إلى اكتشاف السرّ والمسيرة، كما من زجاجٍ شفافٍ. وقتها "يتكلَّم النّاصريُّ عن حنينٍ قائمٍ في أعماقِ القلب"، كما يقول جبران.

التجسُّد كنقطة البدء

لا يمكننا الدخول إلى سِرّ المسيح دون القبول بحقيقة تجسُّد الله. ولا يمكن الحديث عن الإنجيل دونما القبول بحقيقة ألوهة الكلمة؛ فالكلمة «صار جسدًا وحلّ بيننا»، تلك هي رسالة الإنجيل الأولَى والتي يبدأ منها أي حديثٍ وتنطلق من بطونها أيّة قيمة إنسانيّة ومجتمعيّة لاحقة. إنّ هذا الإعلان بمثابة حجر زاوية بالنسبة لإيماننا. فالتجسُّد هو الحقيقة التي تؤكِّد لنا على الألوهة ذاتها، إذ أنّ إلهنا قادرٌ على كلّ شيء حتى التجسُّد!! الأمر الذي يجعل إلهنا منطقيًّا بمقياس قدرته على كَسْرِ حلقة المستحيل. كذلك فإنّ التجسُّد هو حقيقة وجوديّة شخصيّة لأنّ ما اتسلّمه شخصيًّا كمسيحي يوم اقبل سِرّ الموت والقيامة في المعموديّة، هو الجسد الذي به صبغة النعمة الخلاصيّة، وهو ما ينعكس عليّ بالضرورة، إنسانيًّا. لذا فإنّ التجسُّد ووعيه والدخول إلى عمقه يعود بالمسيحيّة من كونها مجرّد ديانة أخلاقيّة مجتمعيّة راقية، وسط ديانات أخرى، كما يراها البعض، إلى كونها الطريق إلى الآب من خلال تجسُّد الكلمة.

يكتب إرنست رينان، الكاتب الفرنسي، فيقول: "جاء يسوع من وطنًا مخضوضرًا هو الجليل الذي يتألَّق ضاحكًا خصيبًا في مقابل قطاع اليهوديّة المقفر الذي تكسو أرضه الصخور ولا ينبت في تربته المجدبة إلاّ فكرٍ عقائديٍّ عقيمٍ. هناك في ذلك الفردوس الأرضي تمّ قبول المسيح وفهمه. هناك تأصّلت أولى لحظات الفكر المدعو إلى قيادة البشريّة نحو التقدُّم. واليوم وبعد انقضاء ثمانية عشر قرنًا [آنذاك] على هذا الحدث لا يسعنا إلاّ الاعتراف لديانة يسوع بالشمول والخلود".

إنّ الوقائع المُجرّدة لم تكن هدف الأناجيل بأي حالٍ من الأحوال، فالأناجيل شهادة ليسوع الإله المُتجسِّد أكثر من كونها مُجرّد شهادة علميّة عن تاريخيّة وجود يسوع، هكذا ينبغي علينا أن ندخل مدار الأناجيل. فالأناجيل تُقدِّم لنا المسيح كما هو، دون مَنْهَجة لعملِه أو تجميل لُّغوي لخُطَبه وعظاته أو تقسيمٍ زمنيٍّ واضحٍ لمراحل التجديد الذي أسبغه على المجتمع؛ فكلمات المسيح كفيلة بقوّتها، كما هي، أن تُشكِّل ردود أفعالنا الإيمانيّة؛ الفرديّة والجماعيّة.

كلمات المسيح دائمًا ما تضعنا أمام الاختيار الصادم؛ إمّا القبول الشخصي للحقيقة أو الرفض، وهذا من أسرار قوّتها؛ فـ "الحقيقة"، بتعبير، جارسيا ماركيز، "هي أبرعُ قالبٍ أدبيٍّ".

من الأمور الهّامة للرسالة المسيحيّة أن تُولِّد في المسيحي أخلاقيّات مجتمعيّة سامية تشهد للنبع الصاف الذي منه يرتشف، فُيخْرِج سلوكًا حيًّا إيجابيًّا في المجتمع. يبدْ أنّه في المقابل، لم يأت المسيح

بكتابٍ أخلاقيٍّ ليُعدِّل من بعض السلوكيّات البشريّة وكأنّه مُصْلِحٌ اجتماعيٌّ، ولكنّه جاء، أولاً وقبل كلّ شيءٍ، ليجتذبنا إلى الملكوت، ومن خلال تلك القوى الجاذبة تنشأ فضائل تنعكس على النظرة التي يُطالِعنا بها المجتمع. إنّ هناك اتّجاهًا يغمر بعض المجتمعات المسيحيّة الآن، وهو تقديم المسيح الأخلاقي عوضًا عن المسيح الإله!!! فبدلاً من الحديث عن سِرّ التجسُّد يمكن الحديث عن إنسانٍ فائقٍ (نموذج نيتشه: الإنسان الأعلى)، وبدلاً من الحديث عن بذل الحبّ، يمكن الحديث عن مقايضات الحب، وبدلاً من الحديث عن أخلاقيّات العفّة يمكن الحديث عن المخاطر المرضيّة للانحلال ... إلخ، أي أنّ البنية المسيحيّة، بين بعض الجماعات، يُعاد صياغتها لتكون نموذجًا مقبولاً في مجتمعاتٍ بعينها، وتلك هي الخطورة؛ أن يُعاد تقديم المسيح كمُصْلِحٍ إنسانيٍّ رفيع المستوى كبديل عن تقديمه كأحد أقانيم الثالوث، الأمر الذي لا يفهمه الكثيرون ذهنيًّا، وبالتالي يرفضونه!! إنّه نوع من التغرُّب عن رسالة الإنجيل يحاول مداراة هُزال الإيمان واللاّهوت بنُتفٍ من النصوص تخدم تماسكًا مجتمعيًّا، في لحظة زمنيّة راهنة، على حساب هويّة الإيمان.

لقد كتب الكاتب الروسي جنجيز أجتماتوف الحائز على جائزة لينين، قائلاً: "إنّ تجربتي مع المسيح ترجع إلى نحو عشر سنوات، عندما بدأت أدرك للمرّة الأولى هشاشة العالم التّامة. فإنّ خطر الكارثة النوويّة الذي يُحْدِق بالبشريّة دفعني إلى القيام بعملية بحث أفضت بي إلى الروحانيات، بحيث توصُّلت إلى استخلاص أنّ وجه المسيح، من الناحية الأخلاقيّة، هو المَرْجِع الضروري لكلّ عملٍ إنسانيٍّ".

يكتب الفيلسوف الروسي برديائيف في كتابه "الحلم والواقع" عن والده فيقول: "إنّ المسيحيّة انكمشت لديه حتى أصبحت مجرّد أن نكون ظرفاء مع إخواننا البشر"!! هذا عينه ما دفع الكاتب أديب مصلح ليقول: "كثيرون ممّن كتبوا سيرتك يا يسوع، حاولوا إظهارك بمظهر إنسانٍ فاتنٍ، بعد أن جرّدوك من ألوهتك!! فحوّلوك إلى صفرٍ يضيف حلقة إلى سلسلة الأصفار التي تملأ عالمنا ومكتباتنا، مع أنك مالئ الكلّ".

من الجيّد أن يكون الربّ يسوع إلهامًا مُعاصِرًا للشعوب، ودافعًا لربط البشر بروابط الدفء واللُّطف، ولكن من الضروري أن نُشدِّد كمسيحيّين على ألوهة مصدر الإلهام الذي قدَّمه للعالم وعدم الاكتفاء بمشاعر الغبطة التي تعترينا لتأثير يسوع في التاريخ والشعوب، ولكن دونما ألوهة!!! فنحن لا نوافق المؤرِّخ الألماني هيرمان صموئيل ريماروس (١٦٩٤ ـ ١٧٣٣) في قوله عن يسوع إنه مُعلِّمٌ عظيمٌ، ومؤسِّس "دينٍ عمليٍّ، مجيدٍ، بسيطٍ ومرموق"!! إنّ يسوعنا إلهٌ قبل كلّ شيءٍ.

حينما سأل أحد الصحفيّين، ألبرت أينشتاين، قائلاً: "سيّدي هل تؤمن بالله؟" فأجاب أينشتاين: "قل لي، عن أيّ إلهٍ تتكلّم، فأجيبك". إنّ الله في إيماننا هو الظاهر في الجسد، كأحد أقانيم الثالوث، في وحدةٍ تامّةٍ مع الآب والروح القدس، ذاك هو الأساس الإيماني الذي نبني عليه الصروح الأخلاقيّة والمجتمعيّة التي من شأنها أن تُصوِّب سلوكيّات المجتمعات وتعود بها إنْ انحرفت عن جادّة الصواب.

لقد آمن الروائي ألفريد دُبلن بالمسيح كطاقة حُبٍّ انسكبت من جوهر الألوهة على البشر، آمن بالله كقوّة فاعلة تؤكّد على اقتراب الله من البشر، إذ يقول: "إنّ يسوع لا يكتفي كسقراط بالاقتراب من البشر واللّجوء إلى السخريّة اللّطيفة الحكمة، ولا يُعطي العِـبَر، ولا يكتفي بتنوير الأفكار، بل يلجأ إلى الفِعْل. فيسوع حُبٌّ مُشعٌ ...".

من هذا الحُبّ يُستعلن سِرّ التجسُّد؛ أنّ الكلمة بالفعل صار جسدًا وضرب بخيمته في أرضنا.

هناك حقيقة علميّة تقول: إنّ حرائق الزيت لا يُطفئها الماء وذلك لأنّ درجة حرارة الزيوت وقتها، ٢١٢ فهرنهيت، تكون أعلى من درجة غليان الماء ممّا يؤدّي إلى تبخُّر الماء مُكوِّنًا سُحُبًا هائلة من البخار الساخن يبلغ حجمها ١٧٠٠ مرّة قدر المياه السائلة التي تمّ صبُّها لإطفاء الحريق، ممّا يؤدي إلى تشتُّت قطرات الزيت فينتشر الحريق أكثر وأكثر. والحلّ هو تغطية الحريق بقماشٍ مناسبٍ لمنع الأُكسجين!!!

هكذا التعدِّي الإنساني الذي انتشر لهبه بالسقوط جيلاً بعد جيلٍ، وكلّما حاول الإنسان بقواه الإنسانيّة التخلُّص من لعنة السقوط كان ذلك إيذانًا بمزيد من التعدّي ومزيد من نيران الخطيئة المشتعلة في كينونة الإنسان الداخليّة. فقط منع الهواء عن جسد الخطيئة يُمكِّنه من التطهُّر الكامل، تمامًا كمنع الأكسجين عن نيران الزيت. ولكن موت الجسد لا يقوم به سوى من لم يكن يومًا مُلتهبًا بشهوات الجسد؛ فالنيران لا تُطفئها نيران، لذا تجسَّد المسيح وهو الإله، وقَبِلَ جسد الموت وهو غير المائت، وعاش بلا خطيئة بالرغم من صيرورته خطيئة على صليب اللّعنة من أجلنا، لكيما يوقف لهب الجحيم عن إبادة عشب الحياة الجديدة التي وهبنا إياها. لذا تقتبس البشريّة كلمات جبران عن تجسُّد المسيح، فتقول:

كنت بالأمس كلمةً صامتةً في خاطر الليالي،
فأصبحت أغنيةً مفرحةً على ألسن الأيام ...

تلك حالة الإنسانيّة الصامتة أمام هول واقعها قبل مجيء المسيح، وذاك مآلها بعدما عَبَرَ الكلمة على أرضنا وقدّم لنا سِرّ الحياة، وكأنّه يَخْلق أغنيةً جديدةً على ألسنة البشر. نعم ميلاد ابن الله هو اللّحظة التي عدَّلت مسار التاريخ، وامتلأ بها الزمان، ليُسلِّم اللاّزمان مقاليد الأمور نحو الأبد.

ميلاد ابن الله

تطالعنا بعض الأناجيل (متّى ولوقا) برحلة يوسف ومريم إلى مدينة بيت لحم لأجل الاكتتاب (التعداد) الذي أَمَرَ به أوغسطس قيصر. كان الاكتتاب يتمّ في اليهوديّة لتقييم الضرائب المُسْتَحقّة، الأمر الذي كان يحدث في مختلف أرجاء الإمبراطوريّة كلّ أربعة عشر عامًا، ولكن لتجنيد الفتيان، بالإضافة لتقييم الضرائب.

بيت لحم، تلك البقعة الخصيبة المرتفعة عن سطح البحر بما يربو من ٢٥٠٠ قَدَم، كهضبةٍ بين قمّتيْن وكأنّها بتعبير أحدهم: "كمسرحٍ بين الجبال". كانت بيت لحم، آنذاك، على موعدٍ مع التاريخ؛ فالقرية الصغيرة النائية التي شهدت طفولة داود وعشقه الأوّل للطبيعة، والتي احتضنت رعايته لخراف يسّى والده، وتراتيله التي كان يُناجي فيها سماء يهوه وشموسه، تتأهَّب لاستقبال ملك الخليقة وربّ داود.

أَلَمْ تشهد بيت لحم مِسحة داود بيدِّ صموئيل؛ ذاك الغلام الذي كان موضع مسرّة الربّ، كسبق نبوّة عن اقتبالها الابن الوحيد؛ مسيحُ الربّ.

ولكن، ألم يكن من الممكن أن يُطْلِق أغسطس اكتتابه بعد ميلاد الطفل حتّى يهنأ يسوع بمولدٍ في بيتٍ مُعدٍّ لاستقباله؟؟ يبدو وكأنّ السماء كانت تقود دفّة الأمور لتؤهِّل مدينة داود لتصِر بحقٍّ مدينة الملك العظيم؛ « أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَفْرَاتَةَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا فَمِنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ وَمَخَارِجُهُ مُنْذُ الْقَدِيمِ مُنْذُ أَيَّامِ الأَزَلِ » (مي٥: ٢).

بيت لحم التي نبت من أرضها عوبيديا، وعلى أطرافها دُفنت راحيل وسط أحزان يعقوب على رفقة العمر، وكانت مُستقرًّا لراعوث وبوعز، تشرع أبوابها لدخول ملك المجد ولكن في ثيابٍ لا يبدو عليها المجد!!

أقدم ذِكْرٍ لبيت لحم ورد في نصوص تلّ العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، في إشارة إلى كونها بيت لحي؛ آلهة البئر في النقب.

انطلق يوسف برفقة مريم، من النّاصرة إلى بيت لحم؛ رحلة تتجاوز التسعين ميلاً مسافةً، والخمسة أيام زمنًا، إلاّ أنّ امرأة في أواخر أيام حملها، كان يصعب عليها ما تلاقيه من عناء منحدرات الطريق واهتزازات الدّابّة وشمس الظهيرة وصقيع الليل، بيد أنْ قلبًا مثل قلب مريم كان يتغلّب على عناء الجسد بأنشودة العلي؛ مُعظِّمةً الربّ الناظر إلى اتّضاع أَمَته. أمام كرامة الحَبَل ومجد المولود قبل الدهور تتلاشَى أتعاب الجسد ويتبدّل أنينه شوقًا لمعاينة نبت الرَحِم وكلمة الألوهة. حقًّا ليس حبنا للعذراء مريم هباءً وعبثـًا، فقد أظهرت حُبًّا وجَلَدًا فائقًا منذ بدء البشارة وحتى منتهى الآلام، وصارت جديرة بلقب والدة الإله.

كان ليوستين الشهيد وكذلك أوريجانوس رأيًا بخصوص مولد يسوع؛ إذ قالا بأنّه وُلِدَ في مغارةٍ على تخوم بيت لحم، وبداخلها يوجد المذود. ومن بعدهم جاء جيروم مؤكِّدًا الأمر مشيرًا إلى أنّ المغارة قد تحوّلت إلى بازيليكا على يدِّ الإمبراطور قسطنطين، وقد تهدّمت بفعل ثورة السامريين ٥٢٩م وقد أعاد بناءها جوستنيان.

لقد كانت بيت لحم، شوقًا للقديسة باولا، المرأة الرومانيّة ذات الشرف والأصول الملكيّة، فتركت رومة وقدّمت حياتها تكريمًا لمولود بيت لحم. لقد قال عنها جيروم في أطول رسائِله: "إنـّها فضّلت بيت لحم على كلّ نعيم رومة، واستبدلت زخارف قصرها المُذهّبة بكوخٍ مطليٍّ بالطين". لقد استوعبت درس بيت لحم وعاشت به وماتت بين أكواخ القريّة الفقيرة؛ هناك عاينت المسيح، بالقلب، وقد تسلّمت سرّ التجرُّد.

لقد كُتب على ضريحها عقب موتها، كما سرد لنا جيروم:

في هذا الضريح ترقد حفيدة شيبيون
وابنة بيت بولينوس العريق
وفرع من الغراكي من نسل أجاممنون العظيم
هنا تستريح السيّدة باولا حبيبة والديها وابنتها يوستوكيا
إنّها الأولى من سيّدات رومة
تختار معاريج بيت لحم حُبًّا في المسيح
هنا قبر باولا محفورًا في الصّخر
لتكن نفسها في السّماء
تخلّت عن رومة وعن كلّ صداقاتها وثرواتها

وأتت لتستقر في هذا المكان القفر
حيث مهد المسيح
الذي قَدِم إليه الملوك وسجدوا له وقدّموا هدايا

بقدر ما صمتت الجموع أمام مولده، بقدر ما صمت الإنجيليّون. لماذا توقّفَت أحبارهم وريشتهم عن شرح تلك اللّحظات الفريدة التي كانت بمثابة فجرًا نديًّا للبشريّة؟؟ لا أعرف. هل صمتهم كان خشية الاستطراد حول ميلاد المسيح لئلا يكون عثرة أمام قبول حقيقة ألوهته؟!! أم أنّهم لم يحصلوا على معلوماتٍ كافية؟؟ قد يرجع ذلك لكون صمت مريم العذراء كان القانون الذي حفظت به بهاء السرّ في قلبها، كذلك يبدو وأنّ المسيح لم يسترسل في ذِكْر حياته الخاصّة قبل ظهوره لبني إسرائيل في الأردن. لم يكن الربّ يسوع يتحدّث عن مولده بالجسد لأنّ مولده الحقّ الذي أراد أن يحرث بذاره في القلوب، هو ميلاده فينا يوم نقبله بالقلب والحياة. ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل يوحنّا يستهل إنجيله بالحديث عن ميلاده الأزلي مقترنًا بصيرورته جسدًا ليأتي لنا بالنعمة والحقّ.

لقد أورد الإنجيليّون مولد الكلمة في عبارة مقتضبة لا تُشْبِع نهم عُشّاق المُخلِّص للتعرُّف عليه بدءًا بأولى لحظات خروجه إلى زمن الإنسان المخلوق. كم كنّا في حاجة لمن يصف لنا الميلاد لحظة بلحظة ليُعطِّر وعينا الجديد بعطر التجسُّد؛ فالكلمات راحة للقلب المتشوِّق لوجه المحبوب.

في الإنجيل نلاقي الربّ يسوع؛ وذلك "لأنّ الجهل بالكتاب هو جهلٌ بالمسيح" عينه، هكذا كتب القديس إيريناؤس. لاقيناه على البحيرة يصارع الطبيعة، لاقيناه على قارب في عرض البحر يملأ الشباك الخاوية، لاقيناه على تلّة يعظ الجموع الجائعة إلى الحقّ، لاقيناه في بيوت الأثمة والخطاة ينتشل غرقى الموت، لاقيناه على قارعة الطريق يخلق بصائر جديدة، لاقيناه في أروقة الهيكل يزيل أتربة التديُّن الزائف عن لفائف التوراة، لاقيناه على جبل التجلي يطلق لاهوته منيرًا كسرٍّ، فقط لأحبائه، لاقيناه في العُليّة يصنع عهدًا جديدًا، لاقيناه في المحاكمة يقبل جريمة الإنسانيّة، كما لاقيناه مُدانًا ليرسل البرّ للإنسانيّة، لاقيناه على الصليب ليخلق كونًا جديدًا، لاقيناه في القبر ليفُكّ أصفاد أسرى الدهور، لاقيناه على جبل الزيتون ليصعد بإنسان الله إلى الآب ... وكم كنّا في شوقٍ لنلاقيه في بيت لحم لنتوقّف عنده قليلاً متأمِّلين في صفاء السرّ لنُقدِّم تراتيلنا مع أناشيد الملائكة. ولكن يبقَى سرّ التجسُّد مختومًا لنا، لا نلمس منه سوى الأهداب، ولا نرتشف من آباره سوى القطرات المتناثرة.

كان اختياره مكان الميلاد وطريقة الميلاد ورفقة الميلاد مبادئ أراد أن يرسيها في أولى كلمات تعاليمه لنا؛ فالحياة الجديدة لن تنسكب في الأواني المُذهّبة ولن تتفتّح أزهارها تحت أضواء مصطنعة ولن تُحقّق توقعات البشر بألوهة القوّة وتسامي الملوكيّة؛ فالمزود مبدأ يبدأ في التثبُّت منذ الآن فصاعدًا كأحد أعمدة الإيمان الجديد. لذا فإنّ مَنْ لم يستطِع اكتشاف المسيح ملكًا في قماط الطفولة في بيت لحم، يصعب عليه الاعتراف بربوبيّته عند الصليب.

لقد وُلِدَ يسوع على مِزودٍ خشبيٍّ وصُلِب على صليبٍ خشبيٍّ، وبينهما عَمَل نجّارًا. وكأنّه يريد أن يُطهِّر الأشجار من لعنة آدم، حينما اقتطف منها، قديمًا، ثمرة العصيان فيبست وتشقّقت في قلبه شجرة الحياة وظلّلها عُشب الموت. أمّا القديس كيرلس الكبير فيرى أنّ المذود الذي يحوي عَلَفَ الحيوانات قد استقبل المسيح وهو "الخبز الذي من السماء الذي هو جسد الحياة"، ليحوِّل طبائعنا من شكلها الحيواني إلى ألَق وبهاء الإنسان الجديد المخلوق على صورة خالقه.

يقول مالكوم ماجيريدج: "إنّ المسيح وُلِدَ في تلك الليلة في بيت لحم ليُجدِّد مخزون إيمان العالم". بيد أنّ ما حدث هو تحوُّل نوعي بالانتقال من رجاء الأسير إلى معاينة إيمانيّة تُحقِّق الملكوت في صميم رجاء التحرُّر عينه. أي أنّ المخزون كان رجاءً مُقيّدًا تحوَّل إلى إيمانٍ بواقع حضور الله في عالم الإنسان بأدوات الإنسان.

لقد وُلِد يسوع، مُخلِّص العالم من قيد العالم ...

وُلِد الخير الدهري من رحم الإنسانيّة الفقيرة ...

وُلِد الراعي ليطلق صوته من غابة الوجود ليدعو قطعانه ويعطيهم أسماءً جديدة ويقودهم خارج غابة الشتاء القارص إلى مروج الربيع الدهري.

وُلِد المُحرِّر ليمحو نغمة العبوديّة من نشيد الإنسانيّة الذابل ذبول أغصان شجر الخريف من بعد العاصفة.

وُلِد الفرح لينزع ثياب الهموم عن أحبّائه، مَنْ يرتمون عند مزوده متدثّرين ببراءته.

وُلِد ليُجدِّد بعث ضوء نجوم الرجاء التي توارت خلف غيوم الشرّ.

وُلد يسوع ليُطبِّب البشريّة بأكسير الحياة بعد سريان سموم التعدّي ليل نهار، أكسيره وعدٌ بدماءٍ أنّ داء الخطيّة لن يدوم.

وُلِد ليفطم البشريّة من الزمان الحاضر ليتركوا لبن الطفولة إلى طعام البالغين بالإيمان مكانًا في مجلس القدّيسين.

وُلِد ليُنزِل قيثارات شعبه من على صفصاف الغربة ليرتّلوا ترتيلة المواطنة السمائيّة التي ألقت بأوتاد خيمتها في قلوب مَنْ قبلوه.

وُلِدَ ليُشيِّد معابد السلام في قلوب أحبّائه لتُرتَّل فيها ألحان الغفران إلى الأبد.

وُلِدَ لإحياء جُذوة النار أو بالأحرى لإعادة اكتشاف سرّ النار في قلب البشريّة، بعد أن ذبلت شرارتها.

وُلِد لكي يُعيد لُّغة الحنان والرحمة إلى لسان الإنسانيّة العجماء.

وُلِد يسوع لئلا يبقَى الإنسان طريدًا شريدًا هائمًا بلعنة قايين ووحشته.

وُلِدَ لكيما يرسل رنين الطُهر إلى مسامع الإنسانيّة ليتردَّد صداها، طاردةً العصيان.

وُلِد يسوع لينزع عار وريقات التوت وليستر عري الجنس البشري بجسده الخاص.

وُلِدَ يسوع ليخلق من باطن الكآبة هناءً، وليعيد التناغم بين الإنسان والكون بعد أن ضجر الكون من خطيّة الإنسان؛ فقد ضجرت الشمس من صراعات الظهيرة، وضجر المساء من قبائح الليل، وضجر السكون من صراخ المظالم، حتى لقد ضجرت القبور من رائحة الموت!!!

وُلِد يسوع دفئـًا ونورًا وحبًّا ويقينًا وحياةً إلى أبد الدهور.

لقد عزف جبران أنشودة ميلادٍ كما لم يعزفها أحدٌ من قبل، رسم بقلمه لوحةً مزج فيها السرّ بالواقع .. الرمز بالحقيقة .. كلماته أشبه بأنغامٍ نستمع إليها، كما لمعزوفات الموسيقى، بالوجدان أكثر من العقل، والوجدان ينقل خبرة ميلاد يسوع الطفل عبر شريان المشاعر إلى أعمق أعماق النفس والروح لتحفرها نقشًا لا تمحوه نقرات الموت مهما اشتدّت. يقول جبران: "كان اليهود يترقّبون مجيء عظيم موعودٌ به منذ ابتداء الدهور ليُخلِّصهم من عبوديّة الأمم، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى أنّ عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت، فلم تعد الأرواح تشبع من الروحيّات، وكان الفكر السامي في روما يتأمّل فيجد أن ألوهيّة آبولون أصبحت تتباعد من العواطف، وجمال فينوس الأبدي قد أخذ يقترب من الشيخوخة، وكانت الأمم كلّها تشعر على غير معرفة منها بمجاعة نفسيّة إلى تعاليم مترفِّعة عن المادة وبميلٍ عميق إلى الحريّة الروحيّة التي تُعلِّم الإنسان أن يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة.

تلك هي الحريّة الجميلة التي تخوِّل الإنسان أن يقترب من القوّة غير المنظورة بلا خوفٍ ولا وجلٍ بعد أن يقنع الناس طرًّا بأنه يقترب منهم من أجل سعادتهم ... ففي ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في لمحة واحدة تنفرد عن الأجيال، لأنّها أقوى من الأجيال، انفتحت شفاه الروح ولفظت 'كلمة الحياة' التي كانت في البدء عند الروح، فنزلت مع نور الكواكب وأشعّة القمر وتجسّدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر، في مكانٍ حقير، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر اللّيل .. ذلك الطفل النائم على القشّ اليابس في مذود البقر ـ ذلك الملك الجالس فوق عرشٍ مصنوعٍ من القلوب المثقّلة بنير العبوديّة، والنفوس الجائعة إلى الروح، والأفكار التائقة إلى الحكمة ـ ذلك الرضيع الملتف بأثواب أمّه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري وأسلمه للراعي المسكين المتّكئ على الأعشاب بين أغنامه، وأخذ الحكمة من مينرفا برقّته ووضعها على لسان الصيّاد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البحيرة، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من آبولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطيًا أمام الأبواب، وسكب الجمال بجماله من فينيس وبثّه في روح المرأة الساقطة الخائفة من قساوة المضطهِدين، وأنزل البعل عن كرسي جبروته وأقام مكانه الفلاّح البائس الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين ... هذا الحبّ العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري، هذا الحبّ الجميل الملتف بأقمطة العواطف، هذا الرضيع اللّطيف المتّكِئ على صدر النفس قد جعل الأحزان في باطني مسرّة، واليأس مجدًا، والوحدة نعيمًا. هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المعنويّة قد أعاد بصوته الحياة لأيامي المائتة، وأرجع بملامسة النور إلى أجفاني المقرّحة بالدموع، وانتشل بيمينه آمالي من لجّة القنوط. كان كلّ الزمن ليلاً .. فصار فجرًا وسيصير نهارًا لأنّ أنفاس الطفل يسوع قد تخلّلت دقائق الفضاء ومازجت ثانويات الأثير. وكانت حياتي حزنًا فصارت فرحًا وستصير غبطة لأنّ ذراعي الطفل قد ضمّتا قلبي وعانقتا نفسي."

سكون المذود وصخب المدينة

جاءه مجوسٌ متتبّعين نجمًا لَمَعَ ليلاً في مدينتهم، عرفوا أنّه نجم ملوكيّة!! نجمُ عظمة ومجد يُكلِّل الإنسانيّة في تلك اللّحظة من الزمان. حزموا أمتعتهم وركبوا دوابهم وقصدوا الطريق، لا يهديهم سوى نجمٍ في سماء. حملوا معهم حلمهم بمجدٍ هائلٍ يُبْرِقُ من بين قصورٍ منيفة وبثيابٍ من برفير منسوجة بأفضل أقمشة الشرق؛ فالملوكيّة كانت دماء ونسل ووراثة. على الطريق حضّروا كلمات الولاء وخُطَب

المديح لِمَلِكِ الغدّ المرتقب الذي تشهد له أفلاك العُلَى. لم تكن اليهوديّة مملكة ذات شأنٍ ولم يخرج منها زعامات مدّت يدها لتحفر لها اسمًا في سجلاّت المغوارين من القادة؛ فقط كانت مستوطنة رومانيّة تُقدِّم ولاءها وجزيتها لقيصر عامًا بعد عام.

إنّ كلمة مجوس أوّل ما ظهرت، ظهرت في مؤلّفات هيرودوت المؤرِّخ، مشيرًا إلى تلك القبائل التي كانت تسكن أرض مادي. اتّسع نطاق الكلمة فيما بعد ليشمل أرض فارس. ولقد اقتصرت الكلمة على ممارسي العمل الكهنوتي والمرتبط بحركة الأفلاك. يرى البعض أنّهم من عُبّاد النّار، ويرى آخرون أنّهم مشيرون حكماء للمملكة. لم يُذْكَر عددهم في النصّ الكتابي ولكن التقليد وصل إلينا مشيرًا إلى كونهم ثلاثة، ولعلّ هذا ارتباطًا بالهدايا الثلاث المُقدَّمة للطفل. وامتدّت بعض التقاليد لتذكر أسمائهم وهي: كاسبر، بلتشاسر، ملخيور، ولكنّها تقاليد غير مؤكَّدة.

قادهم النجم إلى أورشليم؛ مدينة السلام، واختفَى!!

يذكر لنا التقليد الرابيني اليهودي أنّه ليلة مولد إبراهيم، وصل إلى ديار تارح، خَدَمه، ومعهم رجال حكماء من عند نمرود الحاكم، للاحتفال بالمولود. وحالما خرجوا رأوا نجمًا ساطعًا في السماء السوداء. هل أصبحت تلك الحادثة تقليدًا بين الشعوب، ومنه استقَى علم الفلك في بلاد الفُرْس مؤشِّرات الملوكيّة في كبد السماء؟ قد يكون.

لقد رأى بعض الآباء في نبوّة بلعام قبسًا من الضوء تعرّفوا من خلاله على رمزيّة النجم البارز من يعقوب، إذ يقول بلعام: « أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ. أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْسَ قَرِيباً. يَبْرُزُ كَوْكَبٌ (نجم *star*) مِنْ يَعْقُوبَ » (عد٢٤: ١٧).

ويورد وليم باركلي أنّه في الفترة ما بين ٥ ـ ٢ق. م. حدثت ظاهرة فلكيّة غير عاديّة؛ "ففي أول أيام الشهر المصري 'ميزوري' ظهر النجم سيريوس في مشرق الشمس، وأضاء بلمعانٍ غير عاديٍّ، وإذا علمنا أنّ كلمة 'ميزوري' معناها 'مولد أمير' نستطيع أن نُفكِّر كيف فكَّر هؤلاء المجوس أنّ ملكًا عظيمًا قد وُلِدَ".

كما كان كوكب المشتري هو الكوكب الذي يلمع ساطعًا بمولد ملكٍ، هكذا اعتقد القدماء. فهل كان النجم هو المشتري؟!! إنّه رأي من وسط آراء كثيرة. كذلك هناك رأيٌ بأنّ النجم ما هو إلاّ تلاقٍ على خط واحد حدث بين زحل والمشتري في مارس ٦ ـ ٧ ق. م. بينما رأى العالم كبلر (عام ١٦٠٣م) أنّ النجم هو انبعاث ضوئي من انفجار نجم بعيد.

"إنّ ذاك النجم أظهر حضور المسيح، مُسخَّرًا من القوّة العُليا، إنّه آية ظهور المسيح"، كما كتب القديس غريغوريوس اللاّهوتي.

ليس النجم سوى رسالة إلهيّة نيّرة لمعت في السماء وكأنّها نجمًا، لتقتاد أرباب الفلك إلى أعتاب بيت لحم، وإلى داخل مغارة الطفل الملك.

لقد كتب أمبروسيوس قائلاً: "إنّه جاء إلى الأرض ليرفعك إلى النجوم". وكأنّ النجم الظاهر هو باكورة النجوم في سماوات جدّة العَلاقة بين الله والإنسان، كما صار المسيح باكورة الراقدين، ينير الطريق لنجوم إنسانيّة لتجد لها مكانًا على ثوب الربِّ الملك.

ولكن أين مظاهر الفرح بولادة الملك؟؟؟ لا شيء. الكلّ يسعى على رزقه والبلدة هادئة تتحرّك على خُطَى روتينها اليومي. هل تشكّك المجوس في النجم أو في علمهم ودرايتهم بألغاز الأفلاك؟؟ من المحتمل. إلاّ أنّهم قرّروا ألاّ يعودوا خاليو الوفاض. بدأوا يتساءلون: أين المولود ملك اليهود؟؟؟ بدا للمدينة أنّ سؤالهم هذيان صحراءٍ قَسَتْ بشمسها على رؤوسهم. ويبدو أنّهم بدأوا يشرحوا سبب ارتحالهم من بلادهم وعبورهم آلاف الأميال لملاقاة الملك. كانت إجابة عوام الناس أنّهم لا يعرفون ملكًا سوى هيرودس. إلاّ أن تساؤلاتهم لم تذهب سُدىً فقد حطّت على مسامعٍ أوصلتها إلى مسؤولي القصر. لم يكن سؤالهم سوى صدمة انتقل صداها للقصر الملكي حتى وصلت إلى العرش حيث هيرودس.

إنّ الحاكم الجائر دائمًا ما يكون مرتعبًا من عقاب الأقدار، دائمًا يخشَى من مُلْكًا خفيًّا يظهر ليردّ حقّ الدماء البريئة التي سفكها، كان هذا سبب قلق هيرودس، ولعلّه كان يقوم منتفضًا ليلاً خوفًا من المستقبل المجهول على يدّ ملكٍ أعلنته الأفلاك.

إلاّ أنّه كان يستجمع قوى عظمته، ويستحضر شجاعته من أرض المعارك ليقول لنفسه: أهناك ملك سوى هيرودس؟؟! أتجرؤ الأفلاك على إعلان ملك على اليهوديّة سوى هيرودس؟ أويَسْطَعُ نجمٌ فوق سماء أورشليم ليشير إلى عرشٍ آخر سوى عرش هيرودس؟؟ كانت تساؤلاته بمثابة مذابح يقيمها للخوف المرابض على قلبه وعقله.

إلاّ أنّ حيرة هيرودس كانت عظيمة، فعدوّه ليس بشرًا يقطع رأسه بكلمةٍ، عدوّه يختفي خلف الأقدار الإلهيّة. كيف لسيف هيرودس أن يذبح نجمًا في السماء؟؟؟ كيف له أن يُظلِّل على أورشليم ليحجب عنها نور النجم؟؟؟

ترك هيرودس سيفه المُلطَّخ بدماء الأعداء، ليلبس رداء الحيلة ولباس السياسة. دعا المجوس. اصطنع فرحًا وشوقًا لمعانقة الملك الجديد، أرسلهم ليكتشفوا سرّ النجم ومكان الوليد، وجلس لينتظر.

كان ينظر ليلاً للسماء وكأنّه يبحث له عن نجمٍ يصارع به نجم الأقدار الإلهيّة. لقد نجح في معارك السيف ومعارك الخطابة، ذبح أبناءه وزوجته المحبَّبه حمايةً لمُلكه، عيّن رؤساء الكهنة الذين يدينون له بالولاء، واستطاع أن يأمن جانب الرومان بالولاء الكامل، كما بنَى هيكلاً بديعًا لليهود ليكفِّر عن أخطائه في حقّ بنيهم ولكيما يُنسيهم تقدمته للذبائح لجوبيتر في رومة، إلاّ أنّ، كما يبدو، تلك المعركة ليس له قِبَلاً بها؛ إنّها معركة مع السماء!!

هيرودس

في كلّ عصرٍ، قلقٌ واضطرابٌ يخلقه حاكمٍ يخشَى على صولجان مُلْكِه؛ يسعَى للتآمر والقتل والإبادة، فقط ليعانق كرسيه عناقًا أبديًّا، يرجو لو يكون قبره عرشًا منقوشًا بماء الخلود، ولكن هيهات لبني آدم أن يشربوا من مياه الخلود دونما يسوع.

حينما أعطى الإسكندر الأكبر، الفيلسوف ديوجينس، إمكانيّة طلبه أي شيء، كان مطلبه هو قطعة صغيرة من الخلود، فما كان من الإسكندر إلاّ أن قال له: لا أملك أن أهبك إياها، فردّ عليه ديوجينس: ألا تستطيع؟!! فلماذا إذًا يتجشّم الإسكندر كلّ هذا العناء لغزو العالم، وهو لا يستطيع أن يضمن لنفسه لحظة واحدة ليهنأ به!!!

اضطراب هيرودس من ولادة يسوع كان رمزًا لاضطراب العالم من ولادة النور الذي يجرح الظلمة ويطعنها في سريّتها؛ فالظلمة سِرُّ الليل إن أشرقت الشمس عليها ذابت، كما تُصوِّر قصص الخيال مصّاصو الدماء .. أرباب اللّيل .. الذين يذوبون كشمعٍ سخينٍ تحت ضوء النهار.

إنّ ليل القصور مليء بالدماء وسكونه قناع يواري الدسائس!!!

ولكن لحظة ضياء تشرق على المسكونة تزلزل أركان العالم وتضجّ مضاجع عظمائه. في كل عصرٍ هناك هيرودس يسأل عن مولد يسوع ليُكمِّم صرخة طفولته قبل أن تكتمل وتصير كلمة تحرير للجموع وشعلة ضياء لإنارة ساكني الظلمة.

"إنّ الأشخاص الذين لا يخجلون من خسّة ما يرتكبون من الموبقات تحت جنح الظلام، لا يحجمون عن تكرار قباحاتهم في وضح النهار"، هكذا تكلّم شكسبير بلسان بيركليس في روايته. إنّه الدرك الذي يهوى فيه الملك الذي يألف القساوة والاستبداد.

إنّ القسوّة لا تُجزّأ؛ فقد كان هيرودس الأدومي، من نسل عيسو، يتملّكه "جنون العظمة" وهو ما يولِّد عنده شعور دائم بالتآمر ممّن حوله حتى أقرب الناس إليه. لقد شنق زوجته المُفضّلة (مريمن) من بين زوجاته العشر، وقتل اثنين من أبنائه؛ ألكسندر وأرستوبولس، وأعدم الثالث؛ أنتيباتر، وهو على فراش الموت. كما يُذكر أنّ أحد رؤساء الكهنة من الشباب (أرستوبولس أخو زوجته) كانت له شعبيّة منافسة له في المجتمع اليهودي، وُجِدَ غريقًا في بركة لا يزيد عمقها عن بضعة أقدام!!!! وأقام له مناحة كبيرة تصَّدر مدعويها!! كلّ ذلك فضلاً عن الكثير من الجرائم التي لا تُعّد ولا تُحصَى. لذا قال عنه الإمبراطور: "أن تكون أحد خنازير هيرودس أفضل من أن تكون له ابنًا!!!". ومن ملامح الجنون المطبق لدى هيرودس التي يشير إليها يوسيفوس المؤرِّخ اليهودي، أنّه كان يخشَى ألاّ ينوح عليه أحد عقب وفاته، فما كان منه إلاّ أن أمر بذبح نبلاء بلاط القصر عقب موته حتى يضمن مناحة لائقة!!! ولكن لم ينجح الأمر حينما مات.

إنّ أرواح الطغاة تبدو كأنّها تتنقّل عبر العصور لمحاصرة آمال البشر؛ ففي كلّ عصرٍ يوجد هيرودس .. يوجد طاغية يستبيح الدماء ويهرقها وكأنّها سكيبٌ يُقدِّمه لآلهة العظمة حتى تُبقيه عظيمًا فتيًّا أبد الدهور. من بين طغاة الزمان الذين بحثوا عن مجدٍ بين أشلاء المسيحيّين؛ نيرون إمبراطور رومة، هذا الذي قيل عنه: "كلّنا يعرف المُفْسِد نيرون الذي أحرق رومة وقتل الشعب. كلّنا يعلم كيف قتل شقيقه وكيف لطّخ يديه بدم أمّه. وعندما أبصر الجسد الهامد لم يجد الدموع التي ترطِّب وجهه. وإنما راح يطري الجمال الضائع. هل استطاع السلطان الرفيع أن يوقف جرائم نيرون؟ يا له من قدر قاسٍ حين تلتقي شهوة القتل بسلطان السيف".

وقد التقت شهوة القتل بسلطان السيف عند هيرودس فكان طاغيةً. أراد هيرودس قتل يسوع الطفل خوفًا على مُلْكِه، وأراد نيرون قتل أبناء يسوع خوفًا على مُلْكِه ... كلاهما طُغاة يرزحون الآن تحت أصفاد سخرية الجحيم وصداه المُرعِب في الظلمة الدهريّة.

كان هيرودس مكروهًا من اليهود بالرغم من محاولاته السياسيّة، في بعض الأحيان، للتقرُّب منهم، فقد قيل عنه عقب موته: "إنّه تسلّل إلى العرش تسلُّل الثعلب، وحكم حُكم النمر، ومات ميتة الكلب!!"

لم يشفع له بناء الهيكل (٢٠ق م ـ ٦٣م) الذي قال عنه الرابيون اليهود، كما ورد في التلمود البابلي *Baba Bathra* 4a: "مَنْ لم يرى هيكل هيرودس لم يرى مبنىً جميلاً في حياته". ولكن بالرغم منذ ذلك، لم ينسَى اليهود دمويّته فقال قادتهم في التلمود *Numbers Rabbah* 4:14: "لقد بنَى الهيكل رجلٌ خاطِئ، إذ أراد به أن يصير له مسحة [للتطهير] إذ قد ذبح حكماء اليهود".

لقد رأى ماكيافللي Niccolò Machiavelli الفيلسوف السياسي الإيطالي (القرن السادس عشر)، أنّه لكي ينجح الحاكم عليه أن يتنصّل من المبادئ الأخلاقيّة وأن يعتمد فقط على القوّة والخداع، وأنّه أضمن للحاكم أن يكون مخيفًا من أن يكون محبوبًا، لأنّ الحبّ يلزمنا بأشياء كثيرة نُقدّمها للناس، إن تحقّقت ينسونها بسرعة .. أمّا الخوف فهو فزعُ الناس من العقاب دائمًا .. وهذا لا يخيب أبدًا!!! ويكتب قائلاً: "حُسن ارتكاب الجريمة القاسية يُمكِّن من جني الثمار فيما بعد، أمّا عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعدد من يعارضوننا مع مرور الوقت، ولا تقضي عليهم، ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاث (أحد الملوك) يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما، أمّا بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم".

لقد قيل أنّ من بين الذين تأثّروا به هتلر وستالين، كما كان نابليون ينام وتحت رأسه نسخة من كتاب "الأمير" لماكيافللي.

إنّ ملوك العالم يرون السعادة تعادل السلطة وأنّ السلطة تُقتنص بحيل السياسة أو بقوّة السلاح أو بالتحالف مع أعداء الشعب .... إلخ، وجلّ ما يخشونه هو سُلطة حُبٍّ لئلا تفكّ أصفاد أسرى الحديد والنار ممّن يحكمونهم. مَنْ يحكم بالكراهيّة يجاهد لئلا يصبّ الحبّ خمره في كؤوس البشر؛ فخمر الحبّ مُسكِر ومن يُعاقره لا يستطيع إلاَّ أن يسكب ذاك الخمر في كؤوس بني جلدته. خمرُ الحبّ تُذهب العقل وتعلو به إلى علوٍ شاهقٍ .. في عوالم الأبديّة تدفعه ليُعاين سكرَى الحبّ الأبدي الجالسين يرتشفون من نهر محبّة الجالس على العرش، وإذ يبصرونه يتجدّد شوقهم وتتّسع قلوبهم لمزيد من الحبِّ ...

وجه الطفل

وصل المجوس إلى المغارة، فتحوا كنوزهم وهم مندهشون من فقر الطفل. ولكن المتتبِّع للنجوم لن يتوقّف حتى يُقدِّم تقدماته؛ فموضع ثقته في السماء وليس في المظاهر. لا نعلم ما الحوار الذي دار بين المجوس الغرباء وبين عائلة الطفل يسوع؛ والدته مريم والشيخ الكهل يوسف، إلاّ أنّ الإنجيل يؤكّد أنّ الهدايا قُدِّمت بالفعل للمولود ملك اليهود ممّا يشير إلى تيقُّنهم من ملوكيّة الطفل. فالنجم الذي كان رفيقهم لعددٍ من الشهور عاود الظهور ليعاودهم الثقة واليقين ممزوج بالفرح العظيم، وتوقَّف فوق الصبي، وهو الأمر الذي يؤكّد أنّه لم يكن نجمًا طبيعيًّا محكوم بقواعد الأفلاك، ويسبح في الآفاق العُليا.

الكنيسة تُسبِّح في ليلة الميلاد المجيد، مُعقِّبةً على الإنجيل بتلك الكلمات البسيطة والمعبِّرة:

نجمٌ أشرق في المشارق
المجوس تبعوه
حتى أدخلهم بيت لحم
فسجدوا لملك الدهور

سجدوا كما لملكٍ، فالسجود خضوع لسلطةٍ، ولكن سلطة الطفل التي كانت تُحلِّق في أُفُق الإنسانيّة هي سلطة الحبّ الذي لن يقبل فيما بعد بأقل من السجود بالروح والحقّ. كانت هداياهم كمثل تقليد تلك الأيام؛ الذهب واللُّبان والمُرّ، ولا يخفَى على أحدٍ مدلولات الهدايا من ملوكيّة وكهنوت وآلام؛ ضفيرة واحدة لا تنفصل تُعبِّر عن ماهيّة الطفل الإنسانيّة الخلاصيّة والإلهيّة السرمديّة.

وكما جاؤوا متتبعين نجمًا، عادوا أدراجهم متتبعين حلمًا، دون أن يعرجوا على هيرودس الذي كان ينتظر لحظة انطلاق السيف لنحر الملوكيّة المزمعة أن تُستعْلَن.

يا لعجب الحياة حينما يرتعد عتاة العالم أمام بسمة طفلٍ تحمل سرّ الفرح الحقيقي للعالم من بعد ذرّات الأسَى التي ملأت صدور البشر عبر الدهور فاختنقوا. من ذا الذي لا يحب شذا أزهار الربيع ولا انعكاسات قمر منتصف الشهر ولا نسمات بحر الصباح؟!! كان يسوع الوليد رائحة حياة الثالوث التي تنسّمها البشر لأوّل مرّة منذ أنّ ذبلت زهرة الإنسانيّة بالعصيان وعدمت رائحتها بالسقوط. أراد هيرودس قطف الزهرة السماويّة قبل أن تتفتّح تحت شمس الإنسانيّة. كان يبحث عن نُصرةٍ مدويّة

اعتادها أمام أعدائه لكي ما يُسطّرها له التاريخ، بهزيمة طفل بيت لحم!!! ولكن هل من قوّة تستطيع أن تُغالِب قدرة الألوهة وعشقها المُتجسِّد إنسانًا؟؟؟ هل يستطيع سيف الجنون أن ينزع رأس البشريّة السماوي عن جسدها الترابي؟؟؟؟ إنّه صراعٌ يحمل في طيّاته الهزيمة والانكسار المدوِّي لحاملي سيف الزمان في وجه اللاّزمان. لقد وُلِدَ يسوع وبقي رغمًا عن ترسانة الموت المُشرعة في وجه الحياة!!!

إنّ وجه هيرودس، كما نستشعره من الأناجيل، أشبه بماردٍ أُطلق من بين بطون الأساطير الإغريقيّة، ينفث نارًا ويعوي ليلاً ملقيًا بجرذان الرعب في قلب مدينة السلام. ولكن أحيانًا ما يكون الواقع أسطورةً أكثر خياليّة من الأسطورة نفسها!!

بينما وجه الطفل الإلهي تنعكس عليه إشراقات النعمة في ملئها، صفاء الكون يستلهم منه جمالاً. عيناه أشبه بُشُهبٍ من نورٍ، تُطلَق في ظلمة الليل الحالك وكأنّها إعلانات لم تُفسَّر بعد لأنّ الليل لم يرخي سدوله عن أعين البشر. وجهه سِرٌّ لا تدركه العقول المستترة خلف أهداب حكمة العالم، فقط القلب الخاشع يلمس السرّ ويتعلَّم أنّ هناك عالمًا وعِلمًا لا تعرفه معاهد الموسيون السكندري ولا الأكاديميّة الأثينيّة ولا حتّى هيكل أورشليم، أمام سرّ طفولته يحتار المنطق الأرسطي وتخفق المثاليّة الأفلاطونيّة ويرتّد سينيكا الروماني إلى خلف مُدرِكًا جهالته ويتعذّر على هيرودوت أن يلتقط ريشته ليؤرِّخ. حياته دراما تستعصي على شكسبير ودستويفسكي وتولستوي. سرّه نشيد وشِعرٌ مؤثِّر في النفس أكثر من قصائد هوراس ولامرتين.

يكتب القديس كيرلس الكبير قائلاً:

حينما ترى الطفل ملفوفًا بالأقماط
لا تركِّز على الجسد فقط
ارتفع إلى تأمُّل مجده الإلهي
ارفع عقلك عاليًا
اصعد إلى السماء

أمام وجه الطفل لا تملك إلاّ أن تُحبّ وكأنّ ولادته هي ولادة الكلمة الحبّ مختومة بجسدٍ إنساني. تلك الولادة تنزع عن الحبّ نزق الدنس وعبث الهوى ولذّة ظلمة اللّيل.

في وجهه يغرق بَصَرَك ولكن هذا الغرق مُحيي، وكأنّ النظر إليه معموديّة للروح الواهنة العليلة. أمام الوليد يصبح الإنسان أكثر إنسانيّة، فقط أمامه ترجع الإنسانيّة إلى جذورها، وكأنّ جَذْرَ السقوط

قد صار، بميلاد المُخلِّص، مَدًّا، واستعاد الشاطِئ الرملي حيث أحرف الإنسانيّة منقوشة بعد لم يَنل منها ماء البحر وأمواجه.

ملكوت الأطفال

من ولادة يسوع تستمد كلماته ودعوته ووصيّته بُعدًا جديدًا بضرورة ارتدادنا إلى نبع الطفولة لنرتشف من وعي سرّ وجودنا الأزلي، في المسيح، ومن ثمّ في الأبديّة. الطفولة تبقَى سحرًا خاصًّا لأنّها نغمة الطُهر النقيّة التي تُرسِل لحنها إلى مختلف مسامع البشر مهما تعدّدت ثقافاتهم وخلفيّاتهم وأعمارهم وأجناسهم ... أمام نغمات الطفولة الكلّ يستلقي ليرى ملامح الملائكة، وكأنّ النظر إلى الطفولة هو تطهيرٌ للنفس من قباحتها وتجديد لحلمها بأن تصير بجوار الملائكة تنعم بالسلام الأبدي؛ فـ "النفس تُشفَى حينما تكون في صحبة أطفالٍ" كما يقول دستويفسكي.

يكتب خوان أرياس عن الطفولة فيقول:

إنّ الطفل سيظل أصفَى صورة لله وأقربها إلى روح الإنجيل.
الأطفال قبلوا المسيح دون مناقشة.
تركوه يأخذ بمجامع قلوبهم دون أن يحاولوا احتكاره.
الطفل يصل بطبيعته إلى حدود الحريّة في التسليم والمحبّة.
يرى أنّه من الطبيعي أن يجترح أبوه المعجزات
ويكون أقوى الناس وأفضلهم.
يرى من الطبيعي أن يُصْلِحه غيره ويُعلِّمه ...
الطفل يطرح الكثير من الأسئلة ولكنّه يؤمن.
الطفل يشعر في صميم حياته أنّ الحبّ هو في صميم الأشياء.
لذا فإنّ باستطاعته مخاطبة حجارة الطريق
وطين الحقول وماء الجداول،
إنّه ليلعب مع ابن الخادم وابن الوزير،
مع المرأة الطهور ومع المرأة الفجور على حدٍّ سواء.

ويقول كارل سانبورج *Carl Sandburg*: "إنّ الطفل هو رأيًا إلهيًّا بأنّ العالم عليه أن يمضي ويسير". فكلّ طفلٍ يُولَد في العالم نتحسّس فيه رجاءً لا يزال قائمًا في تحسُّن البشريّة وإفاقتها من

بلوغها المميت!! يكفي أن تنظر إلى طفلٍ يولد لتتيقّن أن الله يصبّ في قالب الحياة مزيدًا من الحياة لإصلاح ما فسد من الحياة. ولكن علينا أن نترك تلك الحياة تتلقَّى إلهامها من الله دون أن نقولبها في معارفنا وخبراتنا وحكمتنا النابعة من شعورٍ بالامتياز عن الطفل. إنْ خنقنا حياة الطفل بمنطقنا الخّاص ازدادت ضحايا الإنسانيّة وأبقينا على التشوُّه الذي فينا قانونًا وواقعًا في حياة الأجيال القادمة.

إنّ الطفل هو ماضٍ ومستقبلٍ؛ يرى فيه الإنسان كينونته الأولى قبل انشطاره بين الخير والشرّ وقبل أن تُرْسِل أقلام الشرِّ خطوطها السوداء على لوحة الله الإنسانيّة البديعة. كما أنّ الطفل هو مستقبل، فهو، كما أكّد المسيح، صاحب الدعوة، رمزيًّا، إلى ملكوته، والطفل عند المسيح لا يعني سذاجة الفطرة الإنسانيّة، ولكن بالأحرى حالة قلبيّة لا تشوبها شائبة اختيار العصيان ورفض الخلاص.

من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله

مر١٠: ١٥

الطفولة كما يريدنا المسيح أن نحياها هي القدرة على التخلُّص من قيود المجتمع الذي يضعنا في قالبٍ عادةً ما نُستعْبَد له راغبين عن الحقّ!!! فالطفل يتحرَّك في عالمه غير عابِئ بردود أفعال مَنْ حوله لما يقوم به. تلك القيمة يريدها المسيح منّا بشدّة لأنّ اتّباع صوت الله الداخلي في أعماقنا كثيرًا ما يصطدم بمخاوف مجتمعيّة ممّن حولنا ممّا يُعطِّل مسيرتنا ومسرّتنا في المسيح. أن نتحرّر من قيد الآخر .. أن نكون .. أن نطيع الدعوة دونما حسابات، ذاك درسٌ من الطفولة لنا.

يكتب طاغور فيقول:

إنّ الطفل الذي يرتدي ثوب الإمارة
ويضع حول عنقه الأطواق
يفقد لذّته كلّها في اللّعب
فإنّ ثوبه يعيق كلّ خطوة يخطوها

إنّ الفارق الجوهري بيننا وبين الأطفال هو أنّنا نعمل ما يزيد من شأننا عظمة وما يبلغ بصيتنا إلى الآفاق وما يجلب لنا المزيد من المال وما يُحبِّب فينا الجموع، أي أنّنا أسرى قيود تُحرِّكنا، بشكلٍ واعٍ أو غير واعٍ، بينما الطفل ملكٌ يحيا في مملكته القائمة على قانون الشغف الخاص به، لا تعنيه نظرات الآخرين، ولا يبحث عن مناصب، ولا يبحث عن أموال، ولا يبحث عن سلطة، فكلّها لا تعني له شيئًا أمام لحظة تمتُّع بما يُحبُّه؛ فالطفل مركز أفعاله شغفه الخّاص، بينما الناضج مركز أفعاله هو مردود

الفعل، مجتمعيًّا، عليه. لهذا يريدنا المسيح أن نتبع شغفنا الخّاص، كالأطفال، الشغف الذي يولِّده فينا الروح والذي تُقدِّمه لنا الدعوة الإلهيّة؛ فلقد حزن الغني الذي لاقَى يسوع لأنّه طلب منه أن يتخلَّى عن أمواله ليتبعه. حزن لأنّ المال عنده كان المركز الذي لا يريد أن يستبدله بل يريد أن يضع المسيح إلى جواره، ولكن المسيح لا يجتمع مع آخر يقسم القلب إلى فرقتين، واحدة لحياة العالم والأخرى لحياة الأبد. هكذا أيضًا الذي أراد أن يدفن موتاه ثمّ يتبع المسيح، وكأنّه يقول إنّ المجتمع لن يسامحني إن فعلت هذا، والمجتمع هو إلهي الذي أخشَى فقدان تعاطفه. ولكن المسيح ينظر حزينًا لأنّ الذين يريدون أن يتبعوه لم يُسلِّموا كيانهم بكُليّته له ليقودهم، كما يستسلم الطفل إلى شغفه الخاص؛ فالطفل لا يرى العالم حينما يستبدّ به الشغف لعملٍ ما، هكذا يريدنا المسيح أن نحظَى بشغف الطفولة الذي يعمي بصائرنا عن أي شيءٍ عداه. تلك هي العظمة الحقّ؛ "فالرجل العظيم هو مَنْ لم يفقد قلب الطفل بعد" هكذا كتب مينوسيوس *Mencius*.

الطفولة براءة لا تتحرّك على وقع الشهوة؛ تلك طبيعة في الطفل، يريدها المسيح فينا اختيارًا؛ أن نرفض تحريك الشهوة لنا على وقع الجنس، ودفعها لنا صوب آخر، نتيجة كيمياء فسيولوجيّة غير مُهذّبة بضابط أخلاقي. أن تكون بريئًا لا يعني أن تكون ساذجًا، بحسب فكر الكاتب الفرنسي المعاصر روجيه شارتييه، بل "أن ترى العالم على اتساعه مفتوحًا، مثلما تراه بعيني طفل". قد يرى البعض أن تلك المطالبة بالانضباط الجنسي، هي مطالبة مثاليّة مستحيلة تؤدي إلى كبتٍ جنسيٍّ أخطر من الانفلات الجنسي على الشخص ومَنْ حوله. ولكن في واقع الأمر إنّ دعوة المسيح للتعفُّف وضبط الغريزة بالإرادة التي يقودها ويُشدِّدها روح الله هي واقع حقيقي. فهل نتخيّل مجتمع يتحرّك فيه الجميع وفقًا لحركاتهم الغريزيّة ولإشباعها دونما ضوابط، هل يمكن أن يكون هذا المجتمع سوى مرتع للرغبة الحيوانيّة والانحطاط الأخلاقي؟!!! إنّ هناك ضوابط مجتمعيّة تُرشِّد الرغبة الفرديّة بقانون عام (به عقوبات رادعة في حالات التعدّي) ورغبة مقابلة (ميل من الطرف الآخر). إذًا فهناك إمكانيّة لضبط الغريزة وفقًا لقانون مجتمعي وثوابت مجتمعيّة، دون أن يتحوّل هذا إلى كبتٍ جنسيٍّ. تلك ضوابط أخلاقيّة تحوّلت لقوانين مجتمعيّة، لحماية حريّات الأفراد وخصوصيّتهم. إذًا فإنّ الرغبة الفرديّة تراعي قانونيّة الفعل قبل أن تخرج إلى النور، أي أنّ الرغبة مُقيّدة في آخر الأمر بضابطٍ. بينما في المسيحيّة لا ننال وصايا وضوابط مُجرّدة، بل قدرة ووسائط نعمة لتطبيق الوصيّة؛ ننجح أحيانًا ونُخفِق أحيانًا، بقدر وعينا وتمرُّسنا في استغلال الوسائل، وبقدر وعينا بجيل الغريزة ومسالكها إلى عقولنا، وبقدر إيماننا بالقيمة الأخلاقيّة التي تضفيها علينا الوصيّة؛ مجتمعيًّا وكنسيًّا ... زمنيًّا وأبديًّا. إنّ التعفُّف لا يعني إلغاء

الغريزة الإنسانيّة بل ضبطها وقيادتها وتوجيهها. والطفولة التي يتلمّسها المسيح منّا هي أن نملك خيط الغريزة بين أيدينا قدر الإمكان ولا نجعله يجتذبنا إلى مدارات الخرنوب لأنّها مُرّة وقاسية.

في رأي سوزان لافوليت *Suzanne LaFollette* أنّ "ما يصيره الطفل هو ما يصيره المجتمع" وكأنّها تستلهم من رؤية المسيح المستقبليّة للأطفال، فقد كان المسيح يحبّ الطفولة لأنّه يرى فيها مستقبلٍ مشرقٍ إن تمّ إعداده أعددنا معه الكنيسة التي بلا غضن ولا عيب؛ ففي وجه الطفل كان يرى المسيح وجه البشريّة النقيّة الطاهرة، ويتمنّى أن يكتمل طهرها بالاختيار؛ فالطفولة الإنسانيّة غير مكتملة لأنّها فطريّة، تكتمل فقط بالجنوح إلى الطهارة كقرارٍ مستندٍ على عون النعمة. نعم طفولة السنين ليست هي غرض المسيح، ولكن طفولة القلب الذي يعود إلى حضن البراءة الأولى بالاختيار الواعي الحرّ. أدرك القديس بولس تلك الحقيقة وقال أنّ ما ينشده الله أن نكون أطفالاً في الشرّ لا في الذهن .. أن نكون أطفالاً في عمر الخطيّة وسنيها لا في وعي البرّ وصراعه. إن نظرنا إلى أعوامنا الماضيّة وقسّمناها بين البرّ والشرّ، فكم يا ترى السنون التي تكون في الشرّ وكم في البرّ؟؟؟ ذاك هو عمرنا الحقيقي؛ إن كانت السنون التي قضيناها في الشرّ قليلة كنّا أطفالاً في الشرّ ناضجين في المسيح، وإن كانت السنون التي قضيناها في سماوات البرّ قليلة كنّا أطفالاً في البرّ ناضجين في الخطيئة ... هذا هو جهادنا أن نُقلِّل من لحظات قبولنا الخطيئة بالتوبة السريعة لئلا تصبح لحظات الخطيئة ساعات وأيام وشهور وسنين وتتركنا عند القبر أطفالاً ولكن في البرّ فلا يتعرّف علينا الآب.

لقد كتب أحدهم قائلاً:

أن ألقي بنفسي في عليائك، هذا هو عمقي،
أن أخفي نفسي في نقائك تلك هي براءتي ...

المسيح يريد أن تعود البراءة قانونًا للوجود ... يريد أن يُعمَّد الكون من جديد في إنسان الله الذي قبل صكّ حريّته وبراءته من يدّ الله. كانت البراءة هي مبحث المسيح في القلوب وحينما كان لا يجدها كان يعرضها على الجموع لأنّه لا سبيل لملاقاة الآب إلاّ في الابن ولا سبيل لسكنى الابن إلاّ بالروح، والروح لا يأتي لمَنْ خاصم براءته.

لقد ابتهل المسيح بالحمد لله الآب لأنّ السرّ قد أُعلن للأطفال رغم عدم قدرة الحكماء وأرباب الفهم على اكتشافه؛ « فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَالَ يَسُوعُ: أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ » (مت١١: ٢٥). إنّ الفارق بين الطفل وحكيم هذا العالم

هو القدرة على التصديق بالرغم من متضادات الحقيقة الظاهرة؛ فالطفل يحركه الحدس النقي بينما الحكيم (من يُطْلَق عليهم صفة الحكمة) يُحرِّكه العقل المُحلِّل النقدي الذاتي، ولكن في الإيمانيّات يتغلَّب التصديق على التحليل، ويأتي التحليل بعد قبول الحقّ الإيماني كوسيلة للولوج إلى عمقة.

من ملامح الطفولة الفريدة؛ القدرة على الغفران ونسيان الإساءة دون جهد يذكر ... فالطفل هو مَنْ يغفر للآخر متجاوزًا جراح الإساءة؛ فروحه الغضّة البكر تلتئم جراحها سريعًا قبل أن تتقيّح وتُدمي بغضة وكراهية .. إنّ المغفرة التي يقتنيها الطفل في قلبه البكر الذي لم يُصنِّف البشر بعد، هي دعوة لا يمكن أن ننال ملكوتًا دون أن نحقِّقها.

اغفروا .. اغفروا

الغفران، بتعبير س. إس لويس، هو الفضيلة الأقلّ شعبيّة بين الوصايا المسيحيّة!!! ولكن لماذا طالبنا المسيح بالغفران؟ هل فقط لأنّه غفر لصالبيه لذا يجب علينا أن نتمثّل به تمثُّلاً أعمَى؟! هل لأنّ الغفران طريقة آمنة للحياة بعيدًا عن مخاطر الانتقام والانتقام المقابل؟!! هل هو بمثابة نوع من التعايش مع الظُلم أقرب إلى التكيُّف؟!! هل ليخلق منّا كيانات سلبيّة يسهل الانقضاض على حقوقها؟!! تساؤلات قد تجول بخاطر البعض ...

اغفِروا يُغْفَر لكم

لو٦: ٣٧

إنّ الغفران قيمة مسيحيّة بل وعمود من أعمدة بناء المحبّة في قلوبنا؛ فهل من مسيحي دونما حبٍّ؟؟ وهل من حُبٍّ دونما غفران؟!! أسئلة استنكاريّة تؤكِّد جوهريّة الغفران للمسيحي لا كإضافة إلى فضائله ولكن كأساس لتواجده في المسيح وانقياده بالروح.

الغفران يُظهر بهاء سرّ وجودنا وكينونتنا في المسيح، بالروح والحقّ، إذ يجعلنا نعاين ونختبر الحياة الإلهيّة تنعش أرواحنا التي كلّت من البحث عن المياه في كلّ مكان ولم تنل سوى كلمات. فالغفران مدخل هائل لسرّ المسيح؛ فهو تعبير عن الحبّ الباذل (الأغابي) كما قدّمه لنا الربّ يسوع في حياته وموته وقيامته .. في إنسانيّته وألوهته .. في صمته وكلامه .. في صلبه للخطيئة وصلبه من الخطيئة!! إنّ الغفران تعبير عن وعينا بسرّ التجسُّد القائم على مغفرة الله لنا ونحن بعد خطاة .. الغفران يستوقفنا أمام الصليب ويصرخ فينا أن نتأمّل المشهد؛ فالإله قابض المسكونة بيمينه يغفر لمخلوقاتٍ تعسةٍ

قَبِلَت أن تُشارِك في جُرم الصلب. أن يغفر الله هذا مُحيِّر للمنطق الإنساني!! أن يغفر لمن يتعدّون عليه هذا يفوق الإدراك الإنساني!! وأن يغفر وهو يملك جلّ القدرة على إبادة الأعداء فذاك سرٌّ هائل!! وأن يغفر لأنّه يُحبّ صالبيه فتلك حيرة ما بعدها حيرة تحوم حول عقولنا لتجعلنا نعيد تقييم مواقفنا الإنسانيّة؛ إذ "أظهر بالضعف (الظاهر) ما هو أعظم من القوّة (الظاهرة)"، كما نُسبِّح كنسيًّا.

لقد كتب فولتون شين قائلاً:

مثل الأشجار العطريّة التي تغرق الفأس التي تقطعها بطيبها،
فإنّ قلب يسوع الكبير سكب وهو على شجرة الحبّ
صلاة أكثر منها صراخًا،
صلاة خلوة هادئة وديعة، إنّها صلاة الصفح والغفران.
وفي نفس الوقت الذي تنقلب فيه الشجرة ضدّه وتصير صليبًا،
وينقلب الحديد ضدّه ليصير مساميرَ،
وتنقلب الزهور ضدّه لتصير أشواكًا،
وينقلب فيه الإنسان ليصير جلاّدًا صالبًا لإلهه،
فإنّ من فم يسوع، ولأوّل مرّة في تاريخ العالم،
تنسكب صلاة لأجل الأعداء:
يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يعلمون ماذا يفعلون

إنّنا لا نغفر لمجرّد التشبُّه السطحي البسيط بالمسيح؛ فالتشبُّه المباشر غير المبني على تأمُّل لما وراء الحدث لا يدوم. نحن نغفر لأنّ عدم غفراننا جريمة بمقياس الصليب!! ولأن أي حُجّة بشريّة لن تجد لها مكانًا أمام الصليب بمشهده المتناقض بين القدرة المطلقة والحبّ المطلق والغفران المطلق، ومقابله الكراهيّة والإجرام والإساءة والإهانة من بشرٍ لا يملكون لحظة وجود آمنة في الحياة دونما الله!!! فمَنْ ذا الذي يملُك مرارة ظُلمٍ أقسَى من الظُلم الذي أوقعه العالم على نور العالم؟؟ لا أحد. لذا فإنّ الغفران في إمكانيّة كلّ أحد.

كما إنّنا لا نغفر كنوع من التفضُّل الإنساني بإطاعة وصيّة إلهيّة، ونرتكن على تضحياتنا الإنسانيّة الهائلة لله، ونطالبه بنِعَمٍ مُقابِلة على مستوى الجسد والنفس والروح!!!

نحن نغفر لأنّنا بشر مخلوقين على صورة الله ومثاله. و"المرء"، بحسب تعبير إرنست رينان، الكاتب الفرنسي، "مسكونٌ دائمًا بهاجس البحث عن أصولِه". لذا يكتب وليم أرثر فيقول:

نحن أشبه بالوحوش حينما نقتل
وأشبه بالبشر حينما نُقاضي
وأشبه بالله حينما نغفر

إنّ غفراننا يُعبِّر عن كينونتنا. ولا ننسَى كلمات الملاك المحفورة في التاريخ المسيحي للقديس مكاريوس أبّ بريّة شيهيت حينما أصرّ على ستر خطيئة أخٍّ أخطأ في البريّة، وجلس على جرّة لوثتها الرغبة، فتطهّرت بالحبّ، فكانت كلمات الملاك العذبة له، والتي يتمنّاها أي مسيحي: "طوباك يا مقاره، لقد تشبّهت بخالقك، تغفر الذنوب مثله". إنّها مشابهة إلهيّة فريدة تُعلّمنا أنّنا صرنا مسكنًا للروح.

الذي يغفر للآخر لا يرى خطيئة ولا ضعف، بل مرض يحتاج إلى طبيب، وداء يحتاج إلى دواء، والدواء هنا هو الحبّ؛ ذلك البلسم الناعم الذي تفرشه الأيدي الحانية على القلوب الكسيرة والأرواح المهشّمة والنفوس المهترئة والأجساد المدنّسة بأنفاس الموت وعواصفه.

على سبيل المثال، نجد أنّ مَنْ يأكل لا يُقدِّم تضحية لله بأن يحافظ له على الجسد الذي خلقه، ولكنّه يأكل ليحيا، ليحقِّق وجوده الجسدي، دون أن يأكل سيموت، سيتحوّل إلى كومة تراب. لذا إن لم نغفر نتحوّل بالمثل لكومة تراب لا تُعبِّر عن الإنسانيّة في أصلها ولا عن الألوهة الكامنة في قلب الإنسانيّة ولا عن الفداء والمسحة التي نلناها كمسيحيّين نحيا بكلمة الله وبمنهجه في الحياة.

"فقط الإنسان يمكنه أن يغفر"، إن تأمّلنا تلك الكلمات لـ س. إس لويس، وجدناها صحيحة مائة بالمائة؛ فالكائن العاقل الوحيد هو الإنسان وهو القادر على استخدام العقل نحو الحركة الإيجابيّة وهي المغفرة. فالمغفرة دليل على العقل والعقل مزية إنسانيّة خاصّة وفريدة. ومن يُعطِّل ملكاته الإنسانيّة ينحدر إلى درك الحيوانيّة اللاّعاقلة.

لقد أكّدت بعض أبحاث علم النفس الحديث أنّ الرغبة في الانتقام والتلذُّذ بالتشفّي هي طاقات سلبيّة تأخذ من الإنسان ولا تضيف له. الانتقام هو حالة "أنا" منتفخة ومتضخّمة؛ فمَنْ يبحث عن الانتقام يرى أن الكون هو الأنا والأنت فقط، إنْ صرت عدوًّا وآذيتني يجب أن أؤذيك في المقابل كنوع من التوازن الوجودي القائم على القوّة. هو إذًا إنكار للألوهة بشكلٍ مباشرٍ وصريحٍ، وتأكيد أنّ الله خارج معادلة القوى في الوجود.

يضع القديس يوحنّا الذهبي الفم تسع خطوات أو مراحل أو سلّمات للمحبّة الغافرة، وهي:

الأولى: ألاّ نبدأ نحن بالظلم.

الثانية: ألاّ نقابل الخطأ بخطأ وألا نثأر بانتقام موازٍ.
ثالثًا: ألاّ نعامل مَنْ يضرّنا بنفس المعاملة، بل أن نهدأ تمامًا.
رابعًا: أن نبذل ذواتنا لأجل مَنْ يُخطئ إلينا.
خامسًا: أن نعطي أكثر مما يطلُب الآخر أو يعطي.
سادسًا: ألاّ نكره مَنْ يفعل بنا شرًّا.
سابعًا: أن نحب هذا الآخر.
ثامنًا: أن نحسن إليه أيضًا.
تاسعًا: أن نصلي لأجل مَنْ يُسيء إلينا.

إنّ الغفران هو حالة قلبيّة قبل أي شيء آخر؛ فقد يغفر إنسان ظُلِمَ لأنه لا يملك سوى خيار الغفران الشكلي فمعايير القوى لا تجعله يملك أدوات انتقامه. هنا لا يصبح غفرانًا ولكنّه خنوعًا. فالغفران هو حركة صعود وتجاوز لتلك الإمكانيّة بنوال الحقّ بالقوّة والنيل من المُخطِئ؛ "إذ لا ينتقم لنفسه سوى الضعيف" كما يكتب جبران. إنّ قرار الغفران لا يصدر عن القدرة الإنسانيّة بل عن الهويّة الإنسانيّة، المرتشدة بالنعمة، تلك التي تُعبِّر عن ذاتها بالتسامي فوق ما يربط الإنسان بذكريات الماضي من خلال حبال الانتقام وذلك حتى يمتدّ إلى ما هو قدّام، مع الحفاظ على حقّه في المطالبة بحقوقه، باتزانٍ، دون مشاعر كراهيّة تُحرِّك الخطوات التي عليه أن يتّخذها لاسترداد الحقوق.

مطلب الغفران هو ضرورة مسيحيّة نابتة من كلمات المسيح على الصليب بالغفران لصالبيه، لا كنوع من الإشفاق المرضي على المُخطئين، ولكن كشكلٍ من أشكال العلاج يُقدّمه المسيح لأبنائه؛ فالانتقام والمرارة هي موت محقّق قبل موت الجسد، هي انقسام للنفس وتمزُّعها في البحث عن عقوبة لن تستطيع تغيير الماضي ولن تستطيع تغيير المستقبل سوى للأسوأ!! إنها تنخر كالسوس في كينونة الإنسان لتحيله رمادًا. هنا ويحدث خلط عند الكثيرين بين المغفرة المسيحيّة والمغفرة الجنائيّة والمجتمعيّة؛ فالأولى ضرورة لكلّ مسيحي في كلّ مكان مهما بلغ الظلم ومهما تعالى الاستبداد وتغوَّل، ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن يُطالَب قاضٍ بالمغفرة لقاتل، ولا أن يُطالَب شرطي بالمغفرة لسارق استنادًا على شفقة إنسانيّة، هنا تداخل غير مفهوم للفضيلة مع القانون!! فحقوق المجتمع يحفظها القانون. فالقاضي لا يملك حق الغفران لأنّه يُطبِّق قانون مُجرَّد لضمان سير المجتمع وانضباطه. ولكن حقّ الغفران يحفظه قلب المسيحي الذي يتألّم لألم المخطئ مهما تعاظم خطئه. التشفِّي والانتقام كلمات لا تستقيم على سطور المسيحيّة التي كتبتها دماء الابن الوحيد بالحبّ.

في مسرحيّته "تاجر البندقيّة"، أورد شكسبير تلك الجدليّة بين القانون والغفران (الرحمة) في سياق المرافعة التي قامت بها بورشيا للدفاع عن أنطونيو من قسوة اليهودي الذي أراد أن يقتطع رطلاً من جسده سدًّا لدينٍ لم يُوفَ في أوانِه، فهي تقول:

هي تهبط من السماء عليَّ، كالرذاذ على ما تحتها
هي تبارك الطرفين معًا:
مَنْ كان مصدرها ومَنْ كان موضعها
هي تبدو في أقوى صورها في أقوى النّاس
فتُزيِّن الملك على عرشه أكثر ممّا يُزيّنه تاجه
قد يكون صولجانه رمزًا لسلطته الدنيويّة ولمهابته وجلالته
فهو مصدر خشية الناس وخوفهم من الملوك
أمّا الرحمة فأعلَى شأنًا من التاج والصولجان
إنّها تجلس على عرش قلب الملك
وهي من صفات الله نفسه
ممّا يجعل في السلطة الدنيويّة شبهًا بقدرة الله
حين تُجلَّل بالرحمة والعدالة ...
إن التزمنا بالعدالة وحدها فلن يُكتب لأحدٍ منّا الخلاص
إنّنا في دعائنا نطلب لأنفسنا الرحمة
وهذا الدعاء ذاته يُعلّمنا واجب الإشفاق على الآخرين

حينما استدعَى شيوخ البريّة في شيهيت، في القرن الرابع الميلادي، القديس موسى الأسود، كأحد الحكماء، لإقامة الدليل على دينونة أحد الأخوة، ومن ثمّ فصله من المجمع، لم يستطِع أن يشاركهم، فقد كان يرى خطاياه الكثيرة وقد غفرها المسيح، فكيف لا يغفر لأخٍ القليل من الأخطاء؟!! لقد استطاع القديس موسى الأسود أن يغفر للراهب الذي كان على وشك أن يُحَاكَم في البريّة لأنّه عاين غفرانه الشخصي بعينيه حينما كان يعترف بجرائمه على يدِّ القديس مكاريوس وظهر الملاك ماسحًا السواد من اللّوح ليصير كلّه أبيض ... القلب الأبيض فقط يستطيع أن يغفر لأنّه نَعِم بالغفران. لا نحتاج كلّ مرة لملاك ولوح لنتيقّن من الغفران لأنّ اليقين قلبي حينما يأتي الله ومعه نسمات السلام، وقتها ندرك اكتمال الغفران، كما ندرك الله كقوّة حبّ تتجاوز كلّ ضعفات وتعدّيات البشر عبر العصور، إذ يعبر

عليها ليكسوها بالحبّ والمغفرة؛ تلك خبرة دونها نبقَى في خواء الخبرة الوجدانيّة لحياة الله في أعماقنا، ومن ثمّ لحياة الله في سلوكياتنا وتعاملاتنا.

لقد قال سجين سابق، بعد أن خرج للعالم ولم يجد من يقبله؛ فالكلّ كان يرمقه بنظرات التشكُّك، إلاّ أنّه كان يتمتّع بحبٍّ ومغفرة في الكنيسة: "لا يوجد ما هو أكثر تعبيرًا عن المسيحيّة من الغفران .. أنْ تثق فيمن سقط من قبل!!!". في الغفران تكمن "قوّة الوصيّة الإنجيليّة"، كما كتب القديس غريغوريوس اللاّهوتي، في خطابه الثاني إلى يوليانوس الإمبراطور.

إنّه انعكاس لحالتنا الداخليّة؛ فإن كنّا نحيا متعة المغفرة الإلهيّة لنا من بعد تعدّياتنا، أمكننا أنْ نعكسها على مَنْ حولنا غفرانًا، ولكن إن كنّا لا نتمتّع بغفرانٍ إلهيٍّ نتيجة لابتعادنا عن الله أو نتيجة لقسوتنا على ذواتنا بشكلٍ غير مُبرَّر أو نتيجةً لفهمنا القاصر عن الله وكأنّه قوة تأديبيّة عمياء ينتقم ممّن يُخطِئ ولو بعد حينٍ، فإنّ هذا سينعكس بالضرورة على مَنْ حولنا. الله الذي بداخلنا تعكسه مواقفنا وقناعاتنا وصراعاتنا وآلامنا. لذا فإنّ عدم القدرة على الغفران هو صرخة ألم داخليّة تقول: إنّني لا أستطيع أن أنعم بمصالحة مع ذاتي وبمصالحة مع الله. تلك الصرخة تختبئ خلف مشاعر البغضة والانتقام والتشفّي. لذا فإنّ عدم القدرة على المغفرة هو مرضٌ للنفس، كما أنّه انعكاس لرؤية مشوّهة كونها الإنسان عن الله فصوّرته ممسكًا بسياط الدينونة أبدًا.

"إنّ الانتقام الأقسَى هو ألاّ تُشابِـه المُعتدي عليك"، تلك كلمات ماركوس أوريليوس، الفيلسوف الروماني الشهير. لقد أدخل ماركوس انتقامًا في قاموس السلوك الإنساني ولكنّه انتقامًا بنّاءً، لنخس ضمير المُخْطِئ، وهو حرمان العدو من رؤيتك تتشبّه به وتنهج نهجه، ففي الكثير من الأحيان يُخدَّر ضمير المُخْطِئ حينما يجد نفسه في مجتمعٍ متصارع على شاكلته، ولكن إنْ كان نغمة شاذة وسط مَنْ حوله، كانت تلك قسوة ما بعدها قسوة؛ إنّها قسوة الحبّ الذي يشعل ضمير المُخطِئ، ليلتهم كلّ تبريرات الأخطاء.

لقد تعلّمنا منذ نعومة أظافرنا الصلاة الربّانيّة التي نقول فيها: «وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» (مت٦: ١٢). ولقد أضاف المسيح في نفس السياق قائلاً: « فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَّتِهِمْ لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَّتِكُمْ » (مت٦: ١٤ ـ ١٥). كان التعليم البسيط المُقدَّم لنا أنّه إن أردنا غفرانًا إلهيًّا علينا أن نبادر بغفرانٍ إنسانيٍّ وكأنّنا أمام مقايضة إلهيّة إنسانيّة!!

إنّ الأمر يتخطّى مفهوم المقايضة؛ فالغفران هو تعبير عن كينونة مسيحيّة حقّة، كما أسلفنا، نابتة من غفران إلهي بالفداء ومؤديّة إلى غفران إلهي أبدي مُؤهِّل للملكوت؛ فنحن لا نغفر لأحدٍ ما ونقول لله في صلاتنا عليك بغفران تلك الخطيئة في المقابل!! الأمر الذي يبدو وكأنّ غفران الله لنا نتيجةً لاستحقاقٍ نلناه بغفراننا للآخرين!! وهو ما يبعدنا عن مفهوم المغفرة نفسه القائم على تقديم الحبّ بالرغم من القساوة المقابلة؛ فنحن، بتعبير القديس يوحنّا الذهبي الفم، نغفر لحاجة لدينا "لكن الله لا يغفر لاحتياجه لأحد". لذا فإنّ الغفران الذي يتحدّث عنه المسيح ليس غفرانًا وقتيًّا في حالة بعينها دون الأخرى، ولكنّه يتحدّث عن قلبٍ إنسانيٍّ غفورٍ، ينكسر بالحبّ الباذل المتجاوز للإساءة، وقد اكتشف طبعه الأصلي في المسيح، لذا هو يمارس الغفران بشكلٍ تلقائيٍّ. إذًا فغفران الله لنا مرهون بتحوُّل طبائعنا إلى طبائع غافرة للآخرين، لا فقط كغافرين لبعض الأشخاص في بعض الأوقات وفقًا لبعض الحسابات.

إنّ هذا التحوُّل في طبيعتنا لمشابهة الله بالغفران لا يمنع من المقاومة التي تبديها ذواتنا، بين الحين والآخر، لمجّانيّة الغفران، ولا يمنع أن تكون لدينا مرارة نسكبها في الصلاة لئلا تمتلكنا. فمَنْ يغفر للآخر يصارع أفكار البغضة في داخله ولا يسمح لها أن تتحوّل لسلوكٍ ومواقفَ على أرض الواقع.

في المقابل، نجد أنّ القلب الحي يميل دومًا للغفران لأنّه يستمد حياته من المسيح رأسًا، والمسيح لا يَصُبُّ في قلوبنا سوى حبًّا وغفرانًا.

يكتب أبكتيتس: "إنّ الغفران أَمرٌّ من الانتقام، لأنّ الغفران هو تعبير عن طبيعة رقيقة، بينما الانتقام هو تعبير عن طبيعة متوحّشة". هنا وقد يقول البعض إنّ الكلام النظري عن الغفران رائع، ولكن على أرض الواقع نجد أنّ المرارة قاسية والظلم قاسٍ ... فكيف نغفر؟؟؟

علينا أن ندرك أنّ الغفران ليس قرارًا شخصيًّا مجرّدًا نتّخذه ونحن هانئون، ولكنّه نتاج حياة إلهيّة تعمل في داخلنا يصاحبها صراع ضدّ كلّ غيمةٍ للظلمة تريد أن تَحِلَّ فوق قلوبنا عوضًا عن شاكيناه الحضور الإلهي. إذًا لن نستطيع أن نغفر إن لم نكن نحيا بالمسيح حقًّا، ولن نستطيع أن نغفر إن لم نجوز مرارة الصراع لنجني شهد الغفران. فغير التائب لا يستطيع الغفران وإن كانت خطيئته غير مرئيّة لأحدٍ؛ لأنّ الظلمة مازالت تسيطر على قلبه، ولا يستطيع النور أن يقتحم قلبًا أُغلِقَ دونه، وأوصده الإنسان بالإرادة الحرّة لينعم بمعيّة ورفقة الخطيئة. إذًا علينا أن نفحص ذواتنا جيِّدًا لنبحث

أسباب تمسُّكنا بأفكار الانتقام والرغبة في إذلال الأعداء؛ فقد يكون هناك خطيئة أو عادة أو سلوك تمنع مياه النور أن تنهمر على القلب الجاف لإحيائه.

كذلك علينا قبل محاولة الغفران للأعداء، أن نتعلَّم المغفرة للأحبّاء في المواقف الحياتيّة الصغيرة المُتكرِّرة، وأن نغفر لأنفسنا أيضًا حينما يغفر لنا المسيح؛ فالغفران من الفضائل المتدرِّجة والتي تحتاج إلى ممارسة على عدّة مستويات حتى تصلّ في نهاية الأمر إلى الغفران للأعداء.

حينما قُدِّم إلى المسيح المفلوج المُدلَّى بالحبال، أراد المسيح أن يُقدِّم لإيمانهم أجلّ هديّة إلهيّة وهي الغفران، فقال له: « .. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ » (مت ٩: ٢).

ماذا يبتغي الإنسان أعظم من تطهُّره من الآثام وتجدُّده لملاقاة الحياة دونما انكسارات النفس وتشوُّهاتها التي خلّقتها الخطيئة؟؟ ولكن الإنسان في أغلب الأحيان لا يعلم ماذا يريد، مهموم بالجسد وحاجته؛ قوّته وصحّته .. جماله وأناقته!! كانت كلمات المسيح صادمة لآذان الكتبة الواقفين يتلقّفون كلمات الحياة ليضعوها في سجلاّت التجاديف لتصبح فيما بعد صحائف اتّهام. لم يعرفوا ماهيّة الغفران وماهيّة المسيح، لم يدركوا أنّهم أمام نبع غفرانٍ لو تفتّحت بصائرهم للحظة من الزمان لطرحوا ذواتهم في مياهه حتى الغَمْر، فما أحوجهم إلى معاول الغفران لتُفتّت معابد القساوة التي انعكست على جموع اليهود تعاليمَ في ثياب دينٍ. كان عدم إدراكهم للغفران وحاجة الإنسان إليه، شرٌّ؛ « لماذا تفكّرون بالشرِّ في قلوبكم »، هكذا خاطبهم يسوع، وأضاف أنّ الأيسر هو شفاء الجسد من علّته بينما شفاء الروح بطيب الغفران ليس يسيرًا لأنّه يُكلِّف الإله جسدًا ودماء. إنّ مَنْ يحيا منحسرًا في مدار الجسد لا يطمح سوى في معجزات الجسد، ولكن مَنْ ينفلت من القيد ليتلامس مع آفاق الروح يطمح في انطلاق الروح؛ وما من انطلاق دونما غفران.

لقد قدّم المسيح للكتبة والفريسيين دليلاً على ألوهته بحسب منطقهم، بشفاء جسدٍ، مُتحسِّرًا على قادةٍ لم يدركوا أن مقياس الألوهة هو غفران الخطايا!!

إنّ كلمة غفران في اليونانيّة جاءت بمعنى الإطلاق ***release***؛ فالغفران، من تلك الزاوية، يُطلِق الإنسان من قيد الانتقام ويُطلِق الآخر من قيد الخوف الذي يقود إلى العناد والاستمرار في الشرّ ...

إنّ الغفران كرازة .. إنّه رسالة مسيحيّة قادرة على تحويل مجتمعات بأكملها نحو المسيح ورسالته؛ ولكن تبقَى رسالة تبتغي قلوب تتبنّاها لتُرْسِلها أزاهيرَ على جبين المجتمعات الإنسانيّة المُقضبة الجبين والحزينة. فهل مَنْ يبعث بالرسالة متخطّيًا حقّه وذاته من أجل إعلان المسيح؟؟

ولكن رسالتنا نكتشفها على قارعة الطريق وبرفقة الطريق ...

الطريق

يسرد لنا القديس لوقا (١٠: ٣٠ ـ ٣٧)، في مثل السامري الرؤوف (الصالح)، أنّ خمسة أنماط من البشر قد سلكوا نفس الطريق؛ الشخص الذي صار عُرضة لهجمة اللّصوص، واللّصوص، والكاهن، واللاّوي، والسامري؛ كلُّهم سلكوا نفس الطريق، وطئوا نفس ذرّات التراب ولكن كلاً منهم كان له طريقٌ خاصٌ. فهناك الضحيّة التي تتلقّى من الحياة ضربات موجعة غير متوقّعة (اليهودي)، كما أنّ هناك مَنْ قرّروا خوض مغامرة الحياة على حساب الآخرين فكان ربحهم يرتوي بأذى الآخرين (اللّصوص)، وهناك من تحجّر في المسيرة الدينيّة وقد اختزلوا الإيمان في ممارسات ذبائحيّة وهيكليّة وتعبُّديّة دونما تجسيد سلوكي لردّة فعل العبادة على نمط الحياة (الكاهن واللاّوي)، وهناك قلوبٌ حانيّةٌ قد سبق وصنّفها المجتمع بحسب العرق أو الدين أو المذهب أو اللّون أو الجنس أو المنشأ أو الثقافة ... إلخ، إلاّ أنّ قسوة التصنيف الإنساني لم تمنع طاقات الحبّ وينابيع الرحمة من أن تفيض دونما حسابٍ لعدوٍّ أو صديقٍ (السامري). أنماط تسير على نفس الطريق ولكن لكلٍّ منهم قانونه الخاص، يتجاورون في الحياة ولكن هناك جبال فاصلة بين حياةٍ وحياة.

قال له توما: يا سيِّد لسنا نعلمُ أين تذهب
فكيف نقدر أن نعرف الطَّرِيق؟
قال له يسوع:
أنا هو الطَّريق والحقُّ والحياةُ.
ليس أحدٌ يأتي إلى الآب إلاَّ بي

يو١٤: ٥، ٦

يكتب كيركجارد، الفيلسوف الدنماركي، للمسيحيّين فيقول: "إنّ السؤال لا ينبغي أن يكون أين هو الطريق؟ ولكن بالأحرى، كيف نسير على الطريق؟". فقبول الإيمان بالمسيح هو قبول الطريق إلى الآب في شخص المسيح، لذا لا ينبغي على المسيحي أن يُكرِّر السؤال من جديد عن الطريق لأنّه آمن به بالفعل.

إنّ هناك مستويان للتساؤل؛ المستوى الأوّل يسأل عن الطريق لمَنْ لم يجده بعد. والمستوى الثاني يبحث في كيفيّة المسيرة لمَنْ عرف الطريق.

تقول القصة المنقولة عن التقليد اليهودي أنّ الطريق انفتح أمام الشعب الهارب من جنود فرعون قديمًا حينما وضع موسى أوّل قدم له في المياه. فالطريق لا يظهر لنا دفعة واحدة، وإجمالاً، قبل أن نبدي نوايانا من خلال الحركة الفاعلة، وكأنّ دورنا فقط هو السير وفق قانون الطريق، ولكن، الطريق ينفتح كردّة فعل لمقدار الإيمان الذي به نخطو خطوات مسيرتنا حاذين أرجلنا بثقة قد تبدو لامنطقيّة ولكنّها نبتُ العَلاقة اليوميّة المُتجدِّدة والمستمرة مع الله.

لقد صعد اثنان إلى الهيكل؛ العشّار والفرّيسي، عبر نفس الطريق، وتحت نفس السقف وقفوا، ولكن طريقيهما لم يلتقيا؛ فالأوّل اتّخذ من لاشيئيّته وحاجته المُلحّة إلى العون الإلهي طريقًا، بينما اختار الأخير طريق الماضي الحافل بالممارسات التقويّة الخارجيّة، مستندًا على تطبيق ظاهر الناموس دون جوهره .. طريقان لا يلتقيان.

يُحدّثنا الكتاب عن طريقيْن لا ثالث لهما، في سياق الحديث الرمزي عن الحياة مع الله والحياة بمنأى عن الله. الطريق الأوّل رحب، والرحابة مَطْلبٌ إنسانيٌّ يجذب النفس الباحثة عن راحة الجسد ورفاهته، بينما الثاني، طريقٌ يبدو متهالكًا ولكنّه جاذبٌ لمَنْ درّب حواسه الروحيّة لتتبيّن الجمال الحقّ. طريقان لكلٍّ منهما قوى جذب .. لكلٍّ منهما نقاط قوّة يتربّح منها بشرًا .. ولكن تبقَى النهاية والغاية هي ملمح أُحادي للطريق الثاني الذي يَعِد بأمجادٍ فائقةٍ للسائرين حتى النهاية. لذا على مَنْ يريد أن يُقرِّر وِجهة المسير أن يتوقّف ليتساءل عن خطّ النهاية؛ فمن الحُمْقِ أن نسير على طريقٍ فقط لبهاء مناظره دون أن نتعرّف على الوجهة النهائيّة. وِجهةُ الطريق الرحب ضبابيّة غامضة لا تجد لها مكانًا في الخطاب الدعائي لهذا الطريق؛ فقوى الجذب منصبّة على مباهج المسيرة فقط دون سواها. بينما مدعوي الطريق المتهالك يحملون وثيقة ضمان الخاتمة البَهِجة التي تتخطّى أحلام وأفكار وطموحات الإنسان في تاريخه ومستقبله. من هنا فإنّ مَنْ يريد بهجة المسيرة المنظورة المحسوسة قد يجدها على الطريق الرحب، ولكنّها مشروطةٌ بضرورة رفض الخلاص، وغير آمنةٍ لأنّ قانونها قانون أمواج البحر؛ المتلاطم الصاخب تارةً، والساكن الهادئ تارةً، فهي دائمًا دونما ضمانٍ. على الجانب الآخر، مَنْ يُقرّر أن يسير وفق قياس الغاية النهائيّة والتي هي بدء لعالم ممتد بلا حدود، فإنّ الطريق المتهالك هو خياره الأرجح ولكنّه خيارٌ بوثيقة ضمان وبرفقة إلهيّة وبمحفّزات على الطريق، وهنا الضمان لا يأتي بسكون الموج

وحده ولكن برفقة ربّ الموج القادر أن يُبْكِم الطبيعة بالكلمة. ولكن تذكّر، لا يكفي الاختيار، إذ عليك أن تُفعِّل خيارك بالسير ...

يكتب روبير فروست عن الطريقيْن، قائلاً:

في غابة صفراء افترق طريقان
واأسفاه، ما تمكنت من سلوك كلاهما
وحيدًا، أنا المسافر، وقفت طويلاً
وإلى البعيد البعيد أطلقت نظري في طريقٍ
حتّى التوت، وفي اللاّشيء توارت
فسلكت الطريق الأخرى وكان في ذلك حقٌّ وعدلٌ
وقد اخترت ما ظننته الأفضل
فالأولى رحبة وكأنّها تصيح وتدعوني!
ألذلك، تُرى، بَرَتْها الأقدام
وهي بَرَت من الأقدام قدرًا مماثلاً؟
فالطريقان، ذاك الصباح امتدّا
يغطيهما أوراق شجرٍ لم تمسّها رِجْلُ بشرٍ
آه! تركت الأول ليومٍ آخر!
وبخوفٍ ووعي سلكت الآخر وفي نفسي خشية وشكٍّ كبير
ولكنّي ما من مكان أجهله وزمن قد تفصلني عنه أجيال
سوف أردِّد، وفي نفسي ارتياحٍ وسلام:
طريقان افترقا في غابةٍ،
وأنا سلكت تلك التي قلّ مَنْ مشاها
وهذا أحدث فرقًا كلّ الفرق، في حياتي

لقد شهد الطريق كلّ انفعالات العَلاقة مع الربّ يسوع؛ فتحيّة المُخلِّص كانت بفرش ثيابٍ على الطريق، ونداء المُخلِّص انطلق من فمٍّ أعمَى يستعطي على الطريق، وبذار المُخلِّص بَذَرَتها يدُ الآب على الطريق، وتساؤلات المُخلِّص لرؤية تلاميذه من جهته حلّقت فوق رؤوسهم وهم على الطريق، بل ومحاجاة التلاميذ فيما بينهم عن المكانة المزمعة لهم حول المسيّا جرت وقائعها وهم على الطريق. التهاب قلب تلميذي عمواس، بكلمات المُخلِّص، شهدها أيضًا الطريق، بل ومعاينة المُخلِّص جَرَتْ لبولس وهو على قارعة الطريق، لذا، فلا عجب أن صارت المسيحيّة نفسها تُدعى باسم الطريق.

دعيت المسيحيّة بالطريق لأنّ من وجد المسيح وجد ضالته المنشودة في رحلة البحث الحياتيّة؛ فالمسيح هو الطريق، ومن ثمّ فإنّ المسيحيّة هي الطريق. ليست تلك الرؤيّة تحزُّبًا ساذجًا انفعاليًّا يمكن أن تجد له مثيلاً في كلّ المعتقدات الأخرى؛ ولكن تلك الرؤية تستند على أنّ المسيحيّة تتفرّد بكونها قائمة على تجسُّد إلهي وفداء إلهي وتداخل إلهي في صميم المادّة البشريّة لتحويلها إلى مادّة قادرة أن تتخطّى حدود الطبيعة المحدودة لتقبل سُكْنَى الأبديّة في ردائها الزمني. فكلمة الطريق تعني الطريق المفتوح الممتد وغير المنتهي وغير القابل للتوقُّف، وهي سِمة مسيحيّة تتحقّق من خلال النقلة النوعيّة التي ينالها المسيحي في أبديّته (والتي تبدأ في قلبه من الزمان الحاضر) من طبيعة محدودة بحدود الحواس إلى طبيعة فائقة بالنعمة الإلهيّة الفائضة. ولا يوجد خارج المسيحيّة نقلة نوعيّة كتلك، تُحافظ على امتداد الطريق واتّساعه إلى المنتهَى، فكلّ الطرق خارج المسيحيّة هي امتداد للطريق الزماني والمكاني والمحدود بالحواس، ومن ثمّ فهي طُرُقٌ منتهيّةٌ ومصمتةٌ. لذا فالمسيحيّة هي الطريق.

يمكن أن توجد خارج المسيحيّة طرائق للحياة وطُرق تشرح ما بعد الحياة، ولكنها تنتهي دائمًا عند مفاهيم محصورة في معطيات الحياة الجسديّة عينها. إنّنا حينما نقبل التوصيف الكتابي للمسيحيّة بأنّها الطريق يمكن أن نضيف أنّها "الطريق إلى الآب" (من خلال التبني بالنعمة التي ينالها المسيحي كحقيقة) أو "الطريق المؤدّي للاتّحاد بالله" أو "الطريق الذي يجعلنا شركاء طبيعته الإلهيّة"، فتلك هي نوعيّة الطريق المسيحي، إنّه الطريق الذي يجعلك تدخل في لامحدوديّة المُطلق، لتأخذ منه باستمرارٍ دونما توقُّفٍ، لذا لا ينتهي الطريق أبدًا. وهنا على الذين يرون أنّ لديهم الطريق أن يُوصِّفوا الطريق الذي يتشيّعون له، ولكنّه في نهاية الأمر لن يخرج عن جنّةٍ بمقياس الحواس الزمنيّة والمكانيّة أو اتّحاد بالطبيعة والكون من خلال النيرفانا، مع العِلم بأنّ الطبيعة والكون مخلوقات محدودة أي منتهيّة كما الحواس، لذا فإنّ الطريق يبقَى مصمتًا ومنتهيًا.

إنّ البوذيّة قائمة على ثلاثيّة الأخلاق والتأمُّل والحكمة، ومن خلال ممارستها بانضباطٍ واستمراريّةٍ يحصل البوذي على ما يسمّيه الاستنارة أو حالة النيرفانا. ومن الملاحظ أن هناك اندفاعٌ غربيٌّ صوب البوذيّة لا بصفتها الدينيّة ولا بهدف الوصول إلى النيرفانا، ولكنّه انجذابٌ نفسيٌّ، وكما يقول أحد المختصّين: "إنّهم انجذبوا إلى الطقوس التأمُّليّة التي تساعدهم على أن يكونوا أكثر فاعليّة في مجتمعاتهم، فهي تُمثِّل نوعًا من تحسين الأداء النفسي في مواجهة إحباط الحياة. هي طريقة لتنقية الأهداف والطموح"

ويقول أحد قادة الرهبان البوذيين: "إنّها تتيح لنا بمجهودنا وبقوانا الخاصّة الوصول إلى الحقيقة الكاملة!!!"

ولكن في المقابل فإنّ الدعوة المسيحيّة تَهِبُ قدراتَ خاصّة جدًّا للمسيحي من خلال شركة الروح القدس ليصير مدفوعًا بقوى إلهيّة لتخطّي محدوديّة الطبيعة الإنسانيّة، لا ليصير فاعلاً في المجتمع فحسب، وبل ومُلهِمًا له من خلال حياته التي تشير إلى الأبديّة، فتُجدِّد طاقات الرجاء للإنسان فاقد الحسّ، بإشراقة الغد، فيستنير يومه بالضرورة.

والمسيحيّة لا تعترف بمجهودٍ إنسانيٍّ كاملٍ يستطيع أن يُحرِّر الإنسان، ولكن الجهد الإنساني هو الجانب الأضعف (وإن كان ضرورة)، مهما تعاظم، في منظومة التحرُّر، لصالح النعمة الإلهيّة. ويبقَى الهدف المسيحي ليس هو الوصول إلى الحقيقة ولكن الاتّحاد بالحقّ الذي هو شخص الكلمة، ربّنا يسوع. وما بين التوصُّل للحقِّ والاتّحاد بالحقِّ فرقٌ كبيرٌ، هو الفارق بين الحالة العقليّة المُجرّدة والحياة الفاعلة والمنطلقة من على صخرة الحقِّ.

إنّ التعليم الأخلاقي الذي تأتي به بعض العقائد، أمرٌ جيّدٌ، ولكنه لا يزوِّد الشخص سوى بطريقة العمل النظريّة ويترك الكرة في ملعبك وحدك لتعاني من ضعفك وعدم قدراتك على التحرُّر وأنت سائرٌ على الطريق، إنّه لا يُسلِّمك الأدوات العمليّة للمسيرة. إنّه جيّدٌ ولكنّه ناقصٌ. إنّه طريقة ولكنّه ليس الطريق. لهذا جاء المسيح لكيما يتكمّل فيه كلّ عجزٍ ونقصٍ إنسانيٍّ. لذا فحينما نُقرُّ بأنّ المسيحيّة هي الطريق لأنـها الانفتاح من خلال ولادة الأزلي في عالم الزمن، لا يجب أن نُتّهم بالشوفينيّة الدينيّة.

إنّ المسيحيّة جاءت بالقوّة لتفعيل إمكانيات الإنسان المُعطّلة ليصير مالكًا قراراه وخياره، وبالتالي ضابطًا لسلوكه الأخلاقي داخليًّا قبلما يكون خارجيًّا. إنّ تلك القوّة التي تعين المسيحي في مسيرة الطريق هي الروح القدس، والذي يأخذه كختمٍ عونٍ دائمٍ في حياته المسيحيّة، تتجلّى قوّته كلّما أطاع الروح وانحنَى لمشورته. ولكن الروح لا يعمل فيمَنْ ترك إيمانه أسير نظريّاتَ عقليّةٍ دون الحياة.

أحقًّا نملك إيمانًا

لقد قال الخدّام لرئيس الكهنة والفرّيسيين عن المسيح: « لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هكَذَا مِثْلَ هذَا الإِنْسَانِ » (يو٧: ٤٦). كما قال سقراط قديمًا: "تكلّم لكيما أراك"؛ فالكلمة تهب بصيرة للمستمع ليكتشف الهويّة الحقيقيّة لمَنْ يتكلَّم. كانت كلمات الحقّ النابعة من فم الكلمة الإلهي مُعبِّرة أيّما تعبيرٍ عن الألوهة، لذا كانت جاذبة إلى مدار الإيمان.

وبينما هو يتكلّم بهذا آمن به كثيرون

يو٨: ٣٠

إنّ الفيلسوف يخاطب العقل دائمًا أبدًا؛ لغته تنطوي على التجريد والتحليل والبرهان والاشتباك الفكري، وتهدف إلى إقناع الآخر. والأديب يخاطب في الناس، الوجدان والخيال والعاطفة ليمتع النفس وأحيانًا العقل. بينما المسيح يخاطب فينا الكينونة التي تشمل العقل والوجدان، والتي عبّر عنها الكتاب بلفظة القلب أحيانًا والذهن أحيانًا أخرى، ومطلبه هو الإيمان الذي يَعْبُر على العقل ولا يتوقّف عنده، ويَعْبُر على المشاعر ويتجاوزها، ويَعْبُر على الغاية ليستقوي بها، ليصل بالنفس إلى المسيح، في لحظة تسامٍ مُطْلَقٍ، ليُلْقي بكلمات إيمانه المستنِدة على تلامُسه كيانيًّا مع الروح الذي يشهد داخله بالحقّ. أين يشهد؟؟ وكيف يشهد؟؟ في الأغلب لا يعرف، ولكن القلب والذهن والمشاعر تخرج بلمسات من شهادة الروح، لتُنْتِج إيمانًا حيًّا.

ولكن متى جاء ابن الإنسان،
ألعلَّه يجد الإيمان على الأرض؟

لوقا ١٨: ٨

كلمات قالها المسيح بتنهُّدٍ عميقٍ وبنبرةٍ حزينةٍ واجمةٍ تُفْصِح عنها الكلمات. إنّ إيماننا اليوم يحتاج إلى إعادة فحص، ولعلّ الكثير ممّن نحدّثهم عن الإيمان يختزلون الإيمان في مرحلة قبول الإيمان الأولى، أو مرحلة ثمار الإيمان الأخيرة، وينسون أو يتناسون مرحلة مسيرة الإيمان. وقد يكون الجدل الذي تولّد مع ظهور الحركات الإصلاحيّة في إعادة تعريف الإيمان ومن ثمّ إعادة تعريف الحياة المسيحيّة على قياس الفهم الجديد للإيمان جعلنا ندور في دائرة نظريّة من الإيمان وكأنّنا بصدد نظريّة علميّة أو فلسفيّة نتجادل حول معقوليّتها ومشروعيّتها ونتائجها. ولكن يبقَى السؤال؛ هل حقًا نملك الإيمان؟؟ دون جوابٍ شخصيٍّ واضحٍ، في الكثير من الأحيان.

لقد أعلن المسيح عن ألمه من إمكانيّة تضاؤل وجود الإيمان إبّان مجيئة الثاني، وهذا لا يعني بالضرورة تراجع لأعداد المسيحيّين في العالم ولكنّه يعني مدى مُطابقة نمطهم الحياتي على قياسات الإيمان بحسب فكر المسيح. فالأعداد لا تعني أي شيء في إطار تعريف الإيمان، فقط المواقف الإيمانيّة والالتزام المسيحي رغم إغراءات العالم هي الإشارة الصادقة للإيمان.

إنّ الإيمان، كما قال أحدهم، "ليس عقائدَ مُعلّبة، كلماتَ مصفوفة، ولا أشعارًا منظومة من ثمار البرجوازيّة الفكريّة .."

الإيمان ليس فكرةً ولا إعلانًا يفتر عنه الفم وتجاهر به الحنجرة .. ليس مشهدًا مسرحيًّا لتلقُّف إعجاب الجموع داخل الكنائس .. ليس ثورةً حماسيّةً من العواطف الجيّاشة تذبُل مع الوقت .. ليس ترنيمةً ننشدها وكأنّنا امتلكنا ملء الإيمان .. ليس عظةً نتفنّن في إخراجها بالشكل الأمثل .. ليس موقفًا رتيبًا في الحياة نحياه كما لقومٍ عادة .. ليس بديهيّةً مسيحيّةً عَبَرنا عليها يومًا وانتهَى الأمر .. ليس آياتَ نحفظها عن ظهر قلبٍ لإقناع أنفسنا بأنّ لنا إيمانًا ... لا، ليس شيئًا من هذا ..

إنّ الإيمان قبل كلّ شيءٍ هو موقفٌ مُتجدِّدٌ بتجدُّد أخطار المواجهة مع قِيَم العالم. فالعالم كلّ يوم يُجدّد قيمه الذاتيّة ويُخلِّق ميثاقه الأخلاقي بعد إجراء التعديلات اللاَّزمة حسب توجيهات قانون الإنتاج والاستهلاك، وحسب توجُّه قُطْبِ السلطة، من هنا تنشأ المواجهة ويبدأ الصدام ويتخلّق الموقف الإيماني ..

الإيمان ليس فقط التصديق، ولكنه تفعيل تلك القناعة بالطاعة اليوميّة أو قُل اللّحظيّة لنداءات الله لتغيير الحياة. إنْ توقّفنا عند مرحلة التصديق وأقمنا الاحتفالات وأعلنّا الانتصار وجاهرنا بحيازة الملكوت، نكون أشبه بمَنْ أصدَر نظريّةً علميّةً منهجيّةً منطقيّةً للتخلُّص من مرض الإيدز، ولكنه لم يختبر النظريّة في المعامل ولم يرصد نتائجها على الحياة ولم يُنْقِذ بها حياة البشر!! هكذا الإيمان إن لم يكن له مردودٌ على الحياة نفسها، يبقَى نظريّةً تُهدِّئ من قلق الإنسان دون أن تضعه في مواجهةٍ مع ذاته ومن ثمّ مع المسيح.

ولعلّ من الكلمات المدهشة التي قرأتها، كلمات كيركجارد التي يرى فيها الإيمان "حقيقة مُقلقة" للإنسان المسيحي!! هنا وسيبدأ البعض بالتخوُّف من تلك العبارة إذ أنّ الإيمانَ مصدرٌ للسلام والراحة والفرح، وهذا حقيقي، ولكن قبل كلّ تلك الثمار والنتائج الإيمانيّة، يأتي الإيمان كحقيقة لا تتوافق مع الإنسان العتيق .. لا تتوافق مع أطياف الظلمة في حياة شبه المسيحي .. لا تساكن المنهج التوافقي

في الحياة بين الله والعالم .. لا تُسالِم الخوف والتراجع أمام إعلان الحقّ .. لا تعبأ حتى بالحياة نفسها .. وهنا ينشأ القلق للإنسان العتيق الذي يجب أن يخضع لإجراء تغييرات ثوريّة بل وانقلاب لتمكين الإنسان الجديد من مقاليد الحكم على موطن النفس. إنّ تلك الكلمات يمكن تفسيرها في إطار كلمات المسيح؛ « لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا » (مت١٠: ٣٤). فالسيف هو السيف الذي يجوز في النفس حينما تقبل الإيمان بكلِّ تبعاته وهو ما يقلب الحياة رأسًا على عقب، والسلام الذي يرفضه المسيح هو السلام الزائف المبني على أنقاض الحقّ والعدل .. السلام الخانع المختبـِئ!!!

إنّ القلق الإيماني يظهر جليًّا في موقف الإنسان الذي يدخل إلى المسيحيّة، فتبعات تبعيّة المسيح والإيمان به باهظة وهو أمرٌ مقلق لأي إنسان، ولكن هنا يبدأ الإيمان، الذي يُصدِّر القلق للإنسان العتيق، في إعلان قوّة وفاعليّة الإنسان الجديد لخوض الطريق مع المخلِّص ومجابهة الأخطار والصمود أمام كلّ السهام الخارجيّة المشرعة لضرب السالكين على درب الإيمان مع الربّ. فالإيمان الذي يُصدِّر القلق للإنسان العتيق، يُصدِّر الرجاء للإنسان الجديد، وبين القلق والرجاء تظهر المحنة الإنسانيّة ويتوجّب الاختيار ويبدأ الصراع وتنشأ المغامرة وهذا هو ما يُجرِّد الإيمان من الصفة النظريّة التي يسبغها عليه البعض.

تكتب باميلا ريفي أنّ "الإيمان هو التحدُّث بكلمات الحقّ النابعة عن الحبّ وإن كلّفنا ذلك المناصب والعلاقات". هناك ضريبة للإيمان ينبغي أن نقبل بدفعها، تمامًا كأي موقف في الحياة. فمثلاً إنْ اخترنا حياة الزيف والانكماش أمام مخاطر الحقّ ندفع ضريبتنا أَلَمْ الضمير وثورة القلب ونخس الروح. وإنْ اخترنا حياة الصدق وإعلان الحقّ قد تكون الضريبة المناصب والعَلاقات، فلكلّ طريق ضريبته ولكلّ مسيرة تكلفتها، من هنا يبدأ حساب النفقة الذي تحدّث عنه المسيح لتابعيه؛ « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضاً فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً. وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً. وَمَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بُرْجاً لاَ يَجْلِسُ أَوَّلاً وَيَحْسِبُ النَّفَقَةَ هَلْ عِنْدَهُ مَا يَلْزَمُ لِكَمَالِهِ؟ » (لو١٤: ٢٦ ـ ٢٨)

حينما نحسب نفقة الطريق فإنّنا نَزِن النتائج مع الآلام، والربح في مقابل الخسارة. لقد حسب القديس بولس النفقة وخرج بمعادلة إيمانه الشهيرة، أنّ آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعْلَن، ومن ثمّ اختار الإيمان.

قدّم لنا المسيح كلماته عن نفقة الطريق في سياق حمل الصليب وبُغضة الأقارب والأهل من أجل التلمذة. ولعلّ كلماته تضع أيدينا على السرِّ في فهم معنَى حساب النفقة، إنّها "القدرة / عدم القدرة" «لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا».

لا يقدر أحدٌ أن يأتي إلي إن لم يُعْطَ من أبي

يو٦: ٦٤

نيّة التلمذة للمسيح لا تكفي إن كانت ممزّقة بين محبّتها لله ومحبّتها للعالم. تلك النيّة المُمزَّقة تجعل من حَمْلِ الصليب مشقّةً هائلةً ومن الحياة المسيحيّة نيرًا ثقيلاً ومن الالتزام بالوصيّة وادٍ لا يُعْبَر. فالجندي الذي يُفكِّر في أهلِه وأقاربِه وأحبّائِه في ساحة الوغي يكون عُرضة أكثر من غيره لطعنات السّيوف أو طلقات الرصاص لأنّ الحرب تستلزم انجماع الفكر بكليّته. لذا يصعب على الجندي ذي الفكر المنقسم أن يصمد في ميدان المعركة؛ لا لقلّة إمكانيّاته ومهاراته القتاليّة ولكن لانقسام فكره. لذا فمَنْ يُريد التجنُّد في معركة الإيمان عليه أن يجلس ليرسم خطوط الإيمان لذاتِه أو بالأحرى يتسلّمها من الله، عارفًا بأنّ سرَّ النُصرة يكمن أولاً في توحُّد الفكر وتناغم النيّة مع الإرادة، وحينما يصل الإنسان إلى توحُّد الفكر يصل بالضرورة إلى التصالح مع ذاته ومن ثمّ يتصالح مع ضريبة الإيمان فيتحوّل القلق الإيماني إلى رجاء إيماني لأنّ مركز الإنسان نفسه تحوّل من الإنسان العتيق إلى الإنسان الجديد.

وقد نسأل أحد المسيحيين: هل تُمارِس الإيمان؟

سيُجيب على الفور: ما هذا السؤال الساذج؟ بالطبع فأنا مسيحي.

ونسأله: ولكن هل يظهر هذا الإيمان حيًّا فعّالاً في عَلاقاتك في البيت والكنيسة والعمل والمجتمع؟ هل هو إيمان فاعل مجاهر أم خامل لا يشهد للمسيح ولا يشهد للحقّ ويجبن أمام الانتصار للمظلومين إن نالك من جرّاء ذلك الأذى؟ هل إيمانك يصمد في الفضيلة وإن كانت النتيجة تراجع في الموارد الماديّة؟ وهل إيمانك قائم على الصلاة أمّ فقط الكلمات؟ ...

ويجيب: إنّ لي إيمانًا بكلّ ما قلت، ولكنّي أؤثر السلامة في مواقفي ..

ونسأله: هل على حساب الإيمان؟

ويجيب: كونوا حكماء كالحيّات .. إنّ الحكمة تقتضي ذلك ..

ونسأله: هل الحكمة، كما تراها أنت، تعفيك من ممارسة الإيمان؟

ويجيب صديقنا: ولكنّي مسيحي وصادق في إيماني .. ويبدأ في ترديد قانون الإيمان.

ونقول له مُجدَّدًا: نحن لا نسألك عن قدراتك الذهنيّة على الحفظ، ولكن نسألك عن الإيمان؟

ويجيب وقد بدأ ينفذ صبره: أنا خادمٌ كبيرٌ في الكنيسة ولي عظات هذا عددها ولم يتحدّث أحد مثلي عن الإيمان!!

ونعيد عليه الكرّة من جديد: نحن لا نتحدّث عن مكانتك الكنسيّة، ولا على قدراتك الخطابيّة، ولكن نسألك عن الإيمان، هل لك إيمانًا؟

يجيب وقد بدا الغضب على وجهِه: أنا أكثر منك إيمانًا مئات المرّات ..

ونقول له: نحن لا نقارنك بآخرين في مقدار الإيمان، فالسؤال بسيط، هل لك إيمانًا؟؟

فيفارقنا صديقنا وقد اتّخذ منّا موقفًا حادًّا لأننا فقط نسأله عن الإيمان!! ...

آه .. كم من قيم مشوّهة في عقول البعض تقضي على حقيقة الإيمان وتسلبه ثوريّته على الظلم والخطيئة والخوف. إنّ الكثيرين لا يستطيعوا أنْ يُفرّقوا بين منطوقات الإيمان أو تحديدات الإيمان المسيحي، وبين حياة الإيمان المسيحي. فالمنطوقات الإيمانيّة هي تلك القناعات التي تُحدِّد معرفتي بالثالوث وتُحدّد عَلاقتي بالكنيسة، والتي يتمّ صبّها في قوانين إيمان، ولكن حياة الإيمان هي التطبيق العملي لقبولي الحقّ المسيحي من خلال تفعيله في العالم.

إنّ إبراهيم أبو الآباء آمن بالوعد وفعّل إيمانه بالخروج والطاعة من أرضه إلى الأرض التي اختارها له الله. إيمان إبراهيم الهائل يكمن في قبوله أن يخرج من السياق الطبيعي للحياة في مجتمعه طالما أنّ هناك دعوة إلهيّة. بل وكانت حياة إبراهيم سلسلة متشابكة من المحن الإيمانيّة، لم يتوقّف يومًا ليهنأ بانتصاره في إحداها ويكتفي بالماضي، فالإيمان يعني مسيرة حياتيّة متواصلة وخبرات متجدّدة بتجدّد الحياة مع الله. هنا يظهر التشابك بين القناعة والفعل لتعريف الإيمان.

وحينما أجاب القديس بطرس على سؤال الربّ مؤكّدًا أنه المسيح ابن الله الحي، لم يُحسَب إيمانًا بل إعلانًا (انظر مت١٦: ١٧). وفي المقابل كانت صلاة المسيح من أجله لكي لا يفنى إيمانه، إذ أنه فشل لاحقًا في تفعيل الإيمان بالشهادة للمسيح، وتحويل قناعته إلى صمود أمام هجمة قادة وشعب اليهود على

المسيح وأتباعه. إذًا لا يكفي الإعلان، ولكن المطلب الحقيقي هو الإيمان التطبيقي حينما يقتضي الأمر، وهذا هو المؤشّر الصادق لصدق القناعة الذهنيّة التي يزرعها الروح في قلوبنا وعقولنا.

إنّ تخوُّف المسيح من قلّة الإيمان ليس تخوُّفًا على منطوقات الإيمان الحقيقي، ولكنه تخوُّف على حياة الإيمان التي تسير بقوّة دفع الكلمة الإلهيّة ولا شيء آخر .. وحينما نحيا بالإيمان الفاعل التطبيقي الجّاد فإننا نحمل فكر المسيح لنعالج به قلق الإنسان المعاصر .. نحمل بُشرى الأبديّة للإنسان الخائف من الموت .. نحمل قيمة الحياة لمَنْ غاب عنهم المعنَى والقيمة وسط طوفان اللّذة الغامر .. نحمل سيرة المسيح لتصير نهضةً لمَنْ خاروا في منتصف الطريق أو نالهم الإعياء أو تملّك عليهم الخوف .. حياة الإيمان الفاعل فقط هي التعبير الأكمل عن الحياة المسيحيّة.

يكتب القديس يوحنّا الذهبي الفم، في عظته الثانية والعشرين على رسالة القديس بولس إلى العبرانيين، عن الإيمان فيقول:

> الإيمان يحتاج إلى عطاء وسخاء ونفس متجدّدة ونضرة،
> حتى نتجاوز كلّ الأمور المحسوسة،
> ونتغلّب على ضعف الأفكار الإنسانيّة.
> لأنّه من غير الممكن أن يصير المرء مؤمنًا
> إن لم يسمو بنفسه فوق الأمور المعتادة.

لكي يسمو الإنسان فوق ما هو معتاد بحكم الطبيعة والجسد والحواس يحتاج دومًا لقوى جاذبة ترفعه فوق ذاته إلى موطن الحقّ الذي يرى منه جوهر الوجود وغايته.

قوى جاذبة

يكتب مورياك: "كما يجذب المغناطيس برادة الحديد ويثبِّتها على سطحه فيمغنِط كلّ ذرّة فيها، كذلك يجذبنا المسيح ويثبّتنا ويمنحنا التناغم ويرقَى بغرائزنا ورغباتنا وأهوائنا ومشاعرنا وأفكارنا. وهو، إذ يفعل كلّ هذا، يعيد بناء أرواحنا في حبّه، وتتم بذلك الوحدة الخالدة".

وحدهُ المسيح، القطب الموجب، الجاذب للبشريّة مهما كانت شحناتها السالبة كثيفة، يجتذبنا ليوحّدنا لنُحقِّق كينونتنا فيه.

لأنّ الشعب كلّه كان متعلِّقًا به يسمع منه

لو١٩: ٤٨

ما سرّ تعلُّق الجموع بيسوع؟؟ سؤال يبدو ساذجًا لمَنْ آمن بألوهيّته، ولكن المجتمع اليهودي قديمًا لم يكن قد آمن بألوهته بعد، ورغم ذلك كانت الجموع شديدة التعلُّق به، فما السرّ؟؟

أعتقد أنّ أحد الملامح الرئيسيّة لهذا التعلُّق يكمن في كون المسيح يُحبّ الإنسان كما هو؛ يحبّ الإنسان في خوفه وقلقه، في ألمه ومرضه، في انكساره وسقوطه، في فرحه ونشوته، في حيرته وعقلانيّته ... إلخ. لم يكن حبّ المسيح مشروطًا بحالة إنسانيّة دون عداها، كما هو الحال معنا. فالبعض يُحبّ الشخص الوديع الهادئ، اللّطيف المَعْشَر الرقيق الطباع. وآخرون يُحبّون الشخص الثائر المناضل، الحقوقي الهادر. هناك تركيبة إنسانيّة تتلاقَى مع طبائعنا نُقيِّم من خلالها الآخر لنضعه في قائمة العَلاقات الإنسانيّة الخاصّة بنا؛ فهذا صديق من الدرجة الأولى وذاك درجة ثانية وهكذا إلى أن نصل إلى أشخاص غير مرغوبين على الإطلاق. إلاّ أنّ المسيح أحبّ في الإنسان إنسانيّته بكلّ تناقضاتها وغرابتها، لذا استطاع أن يكون بؤرة جاذبة ومركز تعلُّق لكلّ من جلس تحت أقدام كلماته مُتعلِّمًا ومترجيًّا ولو فتاتٍ من نور.

كان الانفتاح غير المشروط على الآخر هو سرّ جاذبيّة هائلة لمَنْ تعامل مع الربّ يسوع.

لم تكن محبّة المسيح للإنسان محبّة حالمة يرى من خلالها البشر ملائكة!! فقد كان يتوغَّل في النفس الإنسانيّة مُخترقًا طبقات الصخر الخارجيّة ليُطالِع تأثيرات الأهل والطباع والبيئة والأصدقاء والمواقف والتجارب والمحن، ليتعرَّف على الإنسان في سياق ماضيه وحاضره ليخلق له المستقبل الملائم. لم يكن حبّ المسيح للإنسان تائهًا عن أتون الأهواء المستعرة في قلب الإنسان ولكنّ حبّه لم يقشعرّ من لهب الأتون لأنّه قادر أن يُصيّره ندىً بارد.

لا يقدِر أحدٌ أنْ يُقْبِل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني

يو٦: ٤٤

يكتب تيموثي عرفات عن خبرة قبوله الإيمان فيقول: "إذًا، ماذا حدث في أزمتي الدينيّة؟ لقد حدث جذب ونفور. حدث انجذاب لمسيح الإنجيل وأيضا حدث نفور من الإله المُتعسِّف. إله الإنجيل، الرقيق المتواضع القلب، يشدّ الناس إليه بجاذبيّته حيث هو جذّاب في تعاليمه وتصرفاته ومواقفه تجاه بني البشر. جميع أمور المسيحيّة في الإنجيل تأتي على مستوى الشدِّ والاستقطاب هذا. فإن كان عمل الهداية في البداية هو عمل يبدأه الله".

إنّ حلّلنا قوى تأثير المُخلِّص في جذب الجموع لوجدناها كثيرة ومُتعدّدة، ولكن من بينها نجد عاملَيْن رئيسيْن متداخليْن أظهر من خلالهما المسيح تأثيره الهائل على الجموع، هما:

١ـ كينونته الإلهيّة المنيرة

٢ـ تعليمه الأخروي عن الملكوت.

إنّ الطبائع دائمًا ما تنجذب إلى أصلها؛ فالأصل الإلهي للإنسان كمخلوق على الصورة والمثال يُمثـِّل قوى جذب خفيّة للجميع من نحو الربّ يسوع؛ فالطير، على سبيل المثال، بطبيعته، ينجذب للتحليق في السماء. يبدو الأمر وكأنّ هناك قوى مغناطيسيّة في كينونة الإنسان تجد قطبها الآخر في المسيح، وبقدر ما تتلاقَى بشكلٍ مباشر مع المسيح بقدر ما تزداد قوى التجاذب لتصل إلى الالتصاق، وهي الخبرة التي يتحدّث عنها داود النبي فيقول: « التصقت نفسي بك » (مز٦٣: ٨). لقد جاء المسيح بالضبط من أجل تلك الحالة، لكيما يفسح المجال للتلاقي المباشر مع خليقته دونما عوائق حتى تتزايد قوى الجذب والحبّ لتصل إلى الاتّحاد بالله؛ إنّها عمليّة تنقية الصورة الإلهيّة في دواخلنا من خلال العون الإلهي؛ "فلنلتصق بالربّ بطاقتنا القصوى، وهو على استعدادٍ أن يُسْرِع بأن يهبنا العون"، كما كتب القديس مكاريوس الكبير.

إنّ كينونة المسيح الإلهيّة التي كان يُعلن عنها بين الآن والآخر، تارةً بالغفران وتارةً بالشفاء، تارةً بالتجلِّي وتارة بالتخلِّي، تارةً بالكلمة وتارةً بالفعل، هي جوهر سلطة المسيح الهائلة على قلوب البشر. وقد يتساءل البعض، إنْ كان الأمر كذلك، لماذا لم يستطِع جذب كلّ القلوب نحوه، وتغيير المجتمع بأكمله؟؟؟ إنّ السبب هو الحريّة التي ارتضاها قانونًا، وإن كان ثمنها رفضه ورفض إرساليّة الآب بالغفران!!!

"إنّ الإنسان لا يقنع بمصيرٍ متناهٍ"، تلك كلمات رينان، الذي أكّد من خلالها على تأصُّل الهاجس الديني في الوجدان الإنساني، متخطيًا الفكر الذي كان سائدًا في عصره بأنّ التقدُّم العلمي والثقافي من شأنه أن يقضي على الدين تمامًا. ولكن الكيان الإنساني يبحث عن وجوده في المُطْلَق، لا يستطيع أن يؤمن بتلاشيه في الفضاء الكوني بعد الموت وكأنّه لم يكن إنسانًا عاقلاً حاضرًا في صميم الوجود، ولكن هناك مَنْ يبحث في الطريق الخاطئ، وهناك من يبحث دون رغبة حقيقيّة في تصديق الإجابة، وهناك مَنْ يفرّ من تساؤل الوجود في قلبه بالمشغوليّة؛ الإيجابيّة منها والسلبيّة، وهناك مَنْ يُدْرِك الحقّ ولكنّه غير مستعد لتحمُّل التبعات السلوكيّة لحقيقة خلوده الأبدي مُسلِّمًا ذاته لقانون اللّذة واللّهو.

لذا كان الربّ يسوع يُصرّ على الإشارة إلى مُطلق الوجود ولازمنيّة الحياة الجديدة وملكوت الأفراح الروحيّة التي لا تتوقّف، وكذا الطبيعة الجديدة التي ينالها المسيحي بعد اعتصاره من عنقود الموت، ليصير سكيبًا على أرض الأحياء إلى الأبد.

من هنا كان تعليمه الأخروي بملكوت الله على رأس قوى تأثيره في الجموع، فلم يستطِع معلمو اليهوديّة أن يُقدِّموا تعاليم عن الحياة الأخرى، فجلّ ما قدّموه تفسيرات للوصايا، وكيفيّة تطبيقها سلوكيًّا، وتشريعات طالت مناحي الحياة حتى أدقّها، ولكن الغاية من كلّ ذلك، لم يكن لها مكانٌ في التعليم اليهودي على الإطلاق، حتى إنّك لتجد من الصعوبة بمكان الحصول على رؤى واضحة للأبديّة بحسب الفكر اليهودي في أيٍّ من مؤلّفاتهم؛ فمنتهى الحلم كنعان ومُلك المسيّا!!!

إنّ أكبر مؤثر في حركة الإنسان هو وضوح الغاية وجمال الهدف ويقينيّة المكافأة، إن كانت الغاية ضبابيّة غير واضحة فقد الإنسان قدرته على مواصلة السير، ولعلّ المثل الذي يعرفه الكثيرون، هو مثل الأرنب وكلاب الحراسة، فقد استمر الأرنب في العدو هربًا من تلك الكلاب، ولكنّها ظلّت تتبعه، ولكنّها كانت تخور، واحدًا بعد الآخر، لأنّها لم تكن ترى الأرنب، فقط الكلب الذي كان يرى الأرنب استمر في مطاردته حتى حصل عليه منفردًا.

لذا كان المسيح حريصًا كلّ الحرص على ربط أي تعليم أخلاقي بالغاية الملكوتيّة، وربط كلّ وصيّة في الزمان بالجزاء الأبدي. من هنا كان يتخلَّق السلطان الذي لم يستطع الكتبة والفريسيين أن يجاروه؛ فرؤية المسيح للأبديّة كما من زجاجٍ شفاف، بينما رؤية معلمو اليهود وكأنّها من وراء سياجٍ مصمت لا يرون ما خلفه، ولكنهم يُعمِلون فيه الخيال ..

لأنَّه كان يُعلِّمهم كمن له سلطانٌ وليس كالكتبة

مت٧: ٢٩

لقد عقد القديس متى مقارنة بين ما علّم به المسيح وما علّم به الكتبة، وخلُص إلى أنّ المسيح كان يملك سلطانًا في كلماته، إذ لم تكن كلماته نقليّة بل كانت خلاّقة أو قل خالقة، يستطيع من خلالها أن يعيد صياغة رؤية الإنسان. كانت تلك جرأة في مجتمعٍ قيّدته التقاليد التي كانت تتحكّم في كلّ شيء. والتقليد عدوّ التجديد، والنقل عدو الإبداع، والحرف نقيض الحريّة. يكتب ياروسلاف بليكن Jaroslav Pelikan فيقول: "إنّ التقليد هو الإيمان الحي لأولئك الذين سبقونا ورقدوا، بينما التقليديّة هي الإيمان الميّت للأحياء". إنّه هنا يفرّق بين التقليد والجمود. كان التعليم اليهودي أقرب

إلى الجمود والتقليديّة القائمة على تحجيم حركة العقل فيما وراء النصّ، لكي يستطيع قادة اليهود أن يملكوا وحدهم سلطة التأويل بحسب رغباتهم. إنّ هناك ديانات تخليقيّة تنشأ من بطون التعاليم الحقّ؛ تبدأ غالبًا بتقييد الحريّة الإنسانيّة وكأنّها لغمٌ ينفجر في وجه الإيمان ويمحوه!! وتبدأ تلك الديانات التخليقيّة تستمد وجودها من أشخاصٍ عبر عصورٍ مختلفةٍ استندوا على التقوى الأخلاقيّة فتّم تحويل ما كتبوه إلى عقائد وإن تنافت مع الحقّ الكتابي؛ فلكلّ زيفٍ مداخل من أبواب النصوص الخلفيّة. ولعلّ تلك سمة بارزة في مجتمعات الشرق بشكلٍ خاص، إذ يتمّ شخصنة الإيمانيّات؛ فكلّ ما ينطق به التقي صحيح!! وكل ما يُعلِّم به مَنْ نُحبّه عقيدة!!

أَلَمْ تتحوّل المدارس الرابينيّة والتي خلَّقت الهجاده والمدراش والتلمود إلى ديانة أخرى مقابل الديانة البِـكر؟!

قد أبطلتم وصيّة اللَّه بسبب تقليدكم!

مت١٥: ٦

لقد كانت تتحكّم في عقليّة اليهود، أيام المسيح، مدرستان كبيرتان إحداهما لرابي هلِّل والأخرى لرابي شمّاي، وكان لتقواهما العامل الأكبر في تحوُّل تأويلاتهم إلى عقائد مضافة إلى النصّ الكتابي. كان المسيح يعمل جاهدًا على تخليص النصّ من أثقاله وتحريره من معتقدات البشر والعودة به إلى منابعه الأولى حيث التلاقي المباشر مع الله. إنّ صراع المسيح مع قادة اليهود في أمورٍ كثيرةٍ؛ منها السبت والتطهيرات ومعاملة الزناة والعشّارين ... إلخ، كان يهدف إلى تحرير الإيمان من أثقالٍ تُقيِّد ولا تُحرِّر. لذا كان يظهر سلطان المسيح في قدرته على الاشتباك مع العقائد الجامدة التخليقيّة ليفتّتها على ضوء الغاية النهائيّة التي تنضوي علي تحرُّر الإنسان من خلال تلاقيه مع الله.

إحدى أدوات القوّة التي تعوِّل عليها الديانات التخليقيّة هي خلق شبكة من المصالح الاقتصاديّة تدعم هذا "الشبه دين"!! فمثلاً كانت الوثنيّة مرتبطة بتجارة الآلهة، وبالآلاف من الأعمال التي تنشأ إبّان الأعياد المختلفة، فضلاً عن جمعٍ كبيرٍ من الكهنة والعرّافين ... إلخ. إن توقّفت الديانة توقّفت أرزاق البشر، ممّا يجعل الصدام مجتمعي مع كلّ أفكار تحريريّة. على صعيد اليهوديّة؛ كانت هناك تجارة للذبائح واسعة الانتشار، إنّ تمّ الاستغناء عنها بالرحمة؛ « إني أريد رحمة لا ذبيحة » (مت١٢: ٧)، تنشأ فجوة اقتصاديّة، وهي الأزمة التي يسعى القادة لإشعالها. كذلك فإنّ الهيكل اليهودي كان بمثابة مقرًا رئيسيًّا لليهود كرمزٍ بين الأمم. إنْ تمّ تحويل الإنسان إلى هيكل الله، بطُلت الحاجة إلى الهيكل اليهوي،

وتخلّقت فجوة سياسيّة ومجتمعيّة واقتصاديّة للشعب اليهودي؛ « إِنْ تَرَكْنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا » (يو١١: ٤٨).

تلك نماذج من شبكة المصالح التي يُخلِّقها بعض القادة الدّينيين ليضمنوا قوّة ومتانة تركيبة البناء الديني الذي يجلسون على قمّة هرمه ويملكون خيوطه، ولكن دون أن يدركوا أنّ الله قادر على تحويل الأمور في طرفة عينٍ، فينهار كلّ شيءٍ في لحظةٍ من الزمان.

بيد أنْ كلّ تلك الشباك التي غزلتها أيدي القادة بخيوط الاقتصاد والمصالح والسياسة لم تصمد أمام قوى جذب المسيح للجموع، لذا كانت تبعيّته تتطلّب تجرُّد.

إنّ ما ينقصنا تلك الأيام هو التعلُّق الحقّ بالمسيح؛ فحياتنا موجيّة الطابع ليس لها وجهة وليس لها مسار، تتلاطم فيها الرغبات مع الأخطاء .. الاشتياقات مع الانكسارات .. القوّة مع الوهن .. السيادة مع العبوديّة .. الفرح مع القنوط .. إلخ. كلّ تلك التداخلات تشكِّل إنسانيّتنا الهجين الباحثة عن مخرج والطامحة في تحقيق كمالها. ويكمن سرّ تذبذبنا في أننا كثيرًا ما نجنح، كأطفالٍ، للتعلُّق بما يقدّمه لنا العالم، هو يقدر أن يبهر كلّ مَنْ خلا قلبه، وأسلم حواسه، وهيّأ عقله لتلك المغريات. لقد كتب القديس لوقا أنّ الشعب كان متعلِّقًا بالربّ يسوع ويسمع منه، كانت جاذبيّة الربّ مذهلة في التأثير؛ فلم تكن كاريزما شخص بل مجال حضور ونفث روحٍ جديدٍ وفتح طاقات حقيقيّة للرجاء وإشارة إلى بهاء الإنسان حينما يكتمل، وإعادة بعث النور ليشعّ على كلّ مَنْ جلس في الظلمة.

المبادئ

من بين القوى الجاذبة التي كانت تؤدّي إلى تعلُّق الجموع بالربّ يسوع هي جرأته على طرح الحقيقة دون مواربة سياسيّة ولا أغطيّة مجتمعيّة؛ كان يطلق الحقّ حتى لو كان صادمًا حتّى لو كان مُفرِّقًا!! فالفرقة بين النور والظلمة من صميم عمل النور الحقيقي الآت إلى العالم. الكثيرون منّا لا يستطيعون أن يُعْلِنوا الحقيقة التي غالبًا ما تكون صادمة للحشود ممّا قد يؤدي لانفضاضهم من حولهم. وهنا تكمن عظمة المسيح أنّه يُعلِّقنا به لا لنفعه ولا لدعم مملكته الزمنيّة ولا لتسطير اسمه كقائدٍ مغوارٍ في سجلاّتِ التّاريخ المنقوشة بالدقائق والساعات والأيام والسنين، بل يُعلِّقنا به ليحيينا؛ نحن الهدف لصيرورته طريقًا إلى الآب.

لقد كانت كلمات المسيح الصّادمة مُفرِّقة للجموع من حوله، في لحظة كان يمكنه بسهولة استقطابها بوضع بعض الظلال على الحقّ، ولكن المسيح لم يكن يترجَّى أعدادًا تتبعه بل حقًّا يَمْلُك على تابعيه ليؤهّلهم لمعيّته حول العرش السماوي.

المبدأ عند المسيح كان الإنسان لا الوصيّة الحرفيّة لذا فقد كَسَرَ السبت من أجل الشفاء، لأنّ السبت من أجل الإنسان. لم يؤجِّل مبادئه حتى يتحاشَى الإدانة التي سيُصبّها عليه الحَرْفيين من رجالات اليهود. المبدأ كان عند المسيح مرتبطًا بالزمان والمكان دون النظر إلى النتائج السلبيّة بالقياس الشعبوي؛ لأنّ إعلان الحقّ لا يجب أن يتجمّل ليُقْبَل من الآخرين.

لقد كبّ دراهم الصيارف، وطرد باعة الغنم والبقر من الهيكل، ليُرسي مبدأ تكريس بيت الله للعبادة. لم يَخْش من عاقبة فعله على شعبيّته حينما تتأثـّر أرزاق البشر؛ فالمبدأ هو ما سيبقَى إذ سيرتفع عليه البناء فيما بعد من قِبَل الكنيسة.

كان تأكيده على أزليّته وكينونته الإلهيّة التي تسبق ميلاد إبراهيم، صدمة شديدة لشعب يُقدِّس إبراهيم؛ « قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ » (يو٨: ٥٨)، ولكن المبدأ يجب أن يُعْلِن حتى لو امتدّت الأيدي لالتقاط حجارة لرجم الأزلي قبل الدهور!!

لقد تحدّث عن الخبز النازل من السماء مشيرًا إلى ذاته كتحقيق للرمز الذي كان مَنـًّا في رحلة الشعب العبراني؛ «آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ. لأَنَّ خُبْزَ اللَّهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ» (يو٦: ٣١ ـ ٣٣). كان يُرسي مبدأ لملكوته وهو قبول جسده الحقيقي مأكلاً ودمه الحقيقي مَشْرَبًا، إن أردنا أن نُثبِت في شركته. ولكن الجموع لا تريد مبادئ ولكنّها تريد قيادةً شعبيّةً حقوقيّةً سياسيّةً ولو على حساب الحقّ!!!

بل لقد طرح خيارًا تركه حتّى لأقرب أقربائه إن كانت رفقتهم له على حساب الحقّ ..

فقال يسوع للاثني عشر:

ألعلّكم أنتم أيضًا تريدون أن تمضوا؟

يو٦: ٦٧

إنّه سؤالٌ يرنُّ صداه أمام مبادئ الإنجيل التي تطالبنا بتقديم تنازلاتَ، وكأنّ الكلمات تشير إلى استحالة تبعيّة المسيح دونما قبول مبادئه. إنّه لن يغيّر قانون ملكوته من أجل مداهنتنا أو استقطابنا،

لذا كان المسيح دائم التلميح والإشارة والإعلان والمجاهرة بأنّ هناك صليبًا سيحمله السائرون على الطريق، ذاك مبدأٌ لا يبدو جاذبًا لأحدٍ، لذا فإنّ قوّة المسيحيّة المُدْهِشة حقًّا هي أنّها قامت على مبادئ أرساها المسيح ليست جاذبة لإنسان العالم وليست متوافقة مع غريزته غير المُهذّبة ولا مع مركزيّة طموحه السلطوي أو المادي، ولكنّها استطاعت استقطابه وتجديده ليصير إنسان الله، ليدرك سرّ قبول الحقيقة الإلهيّة وإن كانت محتجبة بين أشواك جسثيماني.

إنّ الجرح الذي نجرح به المسيح، يكمن في كوننا كثيرًا ما نتخلّى عن المبادئ والقيم التي سكب من أجلها دمه النقي. تلك المبادئ ليست معنيّة بالأخلاق والسلوك فقط بل تمتدّ لتشمل الهدف والغاية والتطبيق. فمثلاً حينما يتحوّل البذل إلى مبدأ من مبادئ حياتنا الجديدة في المسيح سيتحوّل إلى تطبيقٍ واقعيٍّ في القدرة على المغفرة والقدرة على كَسْرِ الحواجز بيننا وبين الآخرين، والقدرة على قبول الآخر رغمًا عن قسوته أو عداوته، وكذلك القدرة على العمل الجماعي من أجل بناء بهاء الكنيسة الواحدة في العالم. فالمبدأ الواحد ينعكس تطبيقات متعدّدة في حياتنا كلّها تؤصِّل لوجودنا في المسيح وتشهد له.

إنّ إشكاليّة مجتمعاتنا هي أنّها قائمة على المصالح وتبادل الأدوار دون الحفاظ على المبادئ والقيم، وهذا هو لُبّ السياسة، وقد انعكس هذا الأمر على سلوك الأفراد في المجتمعات دون وجود لمادّةٍ صلبةٍ في عقيدتنا الإنسانيّة تُسمّى المبادئ التي لا تقبل التغيير.

لقد كان السوفسطائيون قديمًا يشيعون في الناس رأيًا بأنّ الإنسان هو مقياس الحقّ لنفسه، فما يراه الحقّ هو حقّ بالنسبة له، الأمر الذي يجعل لكلّ فردٍ من الناس معياره الخّاص فيما يتعلّق بالصواب والخطأ وفيما هو فضيلة ورذيلة، كما كتب الدكتور زكي نجيب.

المبادئ ليست تحجُّرًا في العقول أو لهجة قديمة آتية من عصور الجهل والتخلُّف، ولكنّها سرّ الإنسان ليبقَى في صميم الوجود عوضًا عن تحوّله إلى سلعةٍ في الوجود، إذ أنّ ثقافة الاستهلاك أصلها تحويل الإنسان إلى سلعةٍ، تشييئه، وعرضه لمَنْ يدفع أكثر.

المبادئ لا تُربِّح المال ولا تستقطب السلطة بل على العكس فإنّ أنوار المبادئ تجعل فلول المال والسلطة تهرب إلى مخابئها الظلاميّة؛ لذا فإن ذوي المبادئ ليسوا الأشهر ولا الأغنَى ولا الأقدر ولكنّهم البشر كما ينبغي أن يكونوا.

إنّهم أشجارٌ باسقةٌ شامخةٌ على تلال الزمان الإنساني، حملوا في دواخلهم سرّ الصراع والبأس والصمود، وقد تلألأت مبادئهم بعد رحيلهم حينما كُشِفَ النقاب عن سيرتهم. ولعلّ كلمات هيرمان هيسه الحائز على جائزة نوبل (١٩٤٦)، ترسم لنا من واقع الطبيعة سرّ الأشجار، والتي يمكن أن نستشفّ من خلالها سرّ الشخص والإنسان، إذ يقول في مؤلّفه "تجوال":

إنّ تاريخَ الأشجار منقوشٌ بجلاءٍ في مقطع جذعها؛
في الحلقات الدّالة على أعوام عمرها،
في ندوبها،
كلّ الصراعات والآلام،
كلّ الأمراض،
كل الهناءات والرخاءات،
منقوشة هناك بأمانةٍ ودقّةٍ،
سنوات الضيق، وسنوات البحبوحة،
الصمود أمام الهجمات، والثبات في وجه العواصف،
وما من صبيٍّ في القرية
إلاّ ويعرف أنّ الخشب الأقسَى والأنبل
هو ذاك المتميِّز بحلقاته الأضيق،
وإنّ في قنن الجبال وحسب،
ووسط الأخطار المتلاحقة تنبت الأشجار المثاليّة،
الأشجار الأشد بأسًا ومنعة

نعم حينما نشقّ قلب سرّ إنسانيّة رجال المبادئ ومسيحيّتهم الثريّة سنرصد ندبات الحياة وبأسها، ولكنّها الشهادة على أنّهم أصحاب مبادئ لا تلين.

حينما طُلِبَ من الرسل ألاّ يُجاهروا باسم المُخلِّص وقيامته، رفضوا، وإن كانت النتيجة جلداتَ ساخنةً وملاحقةً شعبيّةً وملكيّةً؛ فالكرازة باسم الخلاص مبدأ لا يوضع تحت مكيال بل يُرْسَل كخميرٍ في عجين البشريّة لإعلان النور.

وحينما رأى القديس بولس مواربةً بها رائحة التهوُّد عند بطرس، ثار، وأرسَى مبدأ العهد الجديد؛ بأنّ الرموز انتهت بتحقيق الخلاص بذبيحة الابن الوحيد. كان بولس آخرهم في قبول المسيح، ولكنّه

تمسّك بمبدأ الإنجيل وإن كان أمام صخرة الرسل؛ بطرس. فالتمسُّك بمبادئ الإنجيل هي التي تسبغ على المسيحيّين مكانتهم في قلب الله، لا مكانهم بين متّكئات البشر.

كما كان آباءُ الكنيسة بأجمعهم رجال مبادئٍ من طرازٍ رفيعٍ، تمسّكوا بالحقّ إلى النهاية ولم يسلّموا صولجان المبادئ لجموع المخالفين ليقودوا بها خراف المسيح إلى حظائر خارجيّة. كلُّهم عانوا من أجل مبادئهم، ولذا كانوا أهلاً بالحقّ لمجالسة المسيح حول عرشه.

يكتب القديس غريغوريوس اللاّهوتي، في رسالته السلاميّة الأولى:

إنّه لأفضل أن يُلْقي المرء بنفسه في النّار،
وأنْ يبذل نفسه للسيف
وأن يجتاز حالات العذاب الصعبة
ويُسلَّم للعتاة
بدلاً من أن يصير شريكًا في الخبث والرياء.
لا ينبغي أن يخشَى المرء شيئًا.
لا يجب أن يخشَى إلاّ الله ونكران الحقّ.

إنّ المبادئ مأخوذة من بدء وهي تعني نقطة الانطلاق الأولى، فهي تُحدِّد ثوابت الإنسان التي يجول بها في العالم ويجابه بها المشكلات ويلاقي بها الخطوب ويتحصّل بها على المنافع. هناك مبادئ عقائديّة ومبادئ وجوديّة ومبادئ سلوكيّة ومبادئ إسخاطولوجيّة (أخرويّة) ملكوتيّة، كلّها تنطلق من مركزٍ أوحدٍ هو المسيح وتتعلَّق به، تلك التي يسميها الرسول: « مبادئ أقوال الله » (عب٥: ١٢) فالمبادئ العقائديّة هي ما نؤمن به وما نعليه في قانون الإيمان، وهو قانون للمبادئ المسيحيّة التي يجب علينا جميعًا أن نتّفق عليها لنُدعَى مسيحيّين. من تلك المبادئ العقائديّة تنشأ المبادئ الوجوديّة التي تبحث في هدف وجودي كمسيحي في العالم إن كنت آمنت بالثالوث والخلاص، ومنها تنشأ المبادئ السلوكيّة إذ أنّ مَنْ يعرف هدف وغاية وجوده يسلك بمقتضَى تلك المعرفة، بقوّة الروح الإلهي الساكن فيه، ومن تلك النقطة تظهر بوادر الملكوت في قلب المسيحي لتخلق مبادئ بما هو آتٍ كاختبارٍ شخصيٍّ لا كقانون عام للجميع، فتصبح الأبديّة له مبدأ يتحقّق يومًا بعد يومٍ ويفسِّر السلوك والوجود والعقيدة.

إنّ لكلّ إنسانٍ مبدأٌ ينطلق منه في الحياة وتنطلق منه الحياة إليه، إن وجده وجد بؤرة النور المفقودة في حياته. عدم ولوج النور إلى عمق الحياة يعني غياب المبدأ .. وقد يعني ذلك غيبوبةً عن الوجود نفسه.